MAYSALOON HADI

NOVEL

ميسلون هادي

حلم وردي فاتح اللون

حلم ورديّ فاتح اللون / رواية عربيّة
ميسلون هادي / مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى ، 2009
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عبد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 ، الأردنّ
هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / عمّان**
لوحة الغلاف : **هشام أبريشامي / إيران**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر .
ISBN 978-9953-36-330-7

NOVEL

ميسلون هادي

حلم ورديّ فاتح اللون

(١)

في رأسي أتكوّن من جديد كل مساء نفساً أخرى جديدة ، بعد أن أُحاسب الأولى على ذنوبها وأخطائها ، ثم أطويها في خلوة الليل فوق آلاف النفوس التي تنام معي كل يوم . . وعندما أستيقظ أحياناً ، من دون التجدد إلى النفس الجديدة التي يرتاح لها العقل جازماً بالصحيح من الخاطئ ، يهتف القلب بأنني كاذبة ، لأن الشيء الصحيح سنعرفه في اللحظة نفسها التي نفعل فيها الشيء الصحيح . أقول له : «يا قلب ، صدقني هذه المرة أني قد انتظرت طويلاً وأنا لا أعرف إنْ كنت قد فعلت الشيء الصحيح» . فيضحك ويقول «إنكِ سألت هذا السؤال مئة مرة من قبل ، وبعض الصحيح نقوم به دون سؤال ، فدعي جانباً الأسئلة التي يجب أن تبقى بلا جواب» .

الباب العالي للبيت المقابل مفتوح على غير العادة ، وثمة أطفال يلهون على مقربة منه ، ونساء ممتلئات القوام يدخلن إلى البيت دونما حاجة إلى قرع الجرس أو التريّث قليلاً قبل فتح الباب . . وتحت السماء يمر الغيم خفيفاً ، ثم يذوب وينسحب فيترك خلفه شمساً دافقة ترقص لها أغصان الياس المزروع على شكل قوس يحيط بالباب . . كان يابساً منذ عامين والآن استعاد لونه الأخضر اللماع وعاد إلى الحياة بعد أن شابته الصفرة وتساقطت أوراقه وكاد يموت من شدة العطش . أما جرس الباب فتلك حكاية أخرى ، هي كل ما نحتاج اليه لنخلص إلى حكاية أصغر نلملمها

في منديل معقود ونرويها للصغار عندما يكبرون . . . . . فهذا الجرس المنطوي الصامت منذ سبع سنوات يبدو أنه قد نطق أخيراً وقال كلمةَ حق . كان هو الشاهد على الفرح والحزن ، وعلى الحقيقة والخطأ ، وقد مر عليه الشحاذون بالعشرات ، الصادقون منهم والكاذبون ، ومر عليه المقايضون والعطشى والتائهون والحدائقيون والغاسقون وطلاّب المؤونة الفائضة عن الحاجة . قرعه الأهل والأحبة من الإخوة والآباء والأمهات ، وأَعلنَ أخبار التخرج والنجاح بلجاجةِ الضربِ عليه من الأبناء والبنات ، ثم عافوه وخرجوا جميعاً فراراً منَ النار والدمار إلى الشتات وبلدان الجوار . . .

هذا الجرس هو نفسه الذي خمش القلوب المنتظرة بمخلبه القاسي ، عندما كان يقرعه قادمٌ وقتَ الغسق يتبعه خبرٌ مفجعٌ أو تابوتٌ ملفوفٌ بالعلم ، فيتوحش البيت ويتحول الى أثر . . فما أكثر ما يَرى ، هذا المنادي الصغير المختفي خلف كَلْكَلِ الأشجار ، من أحزان وأفراح . . وما أغرب ما يحتمل من سَبَابات العابرين من الغرباء وأهل المكوث من الأحبة والأهل والأصدقاء . . وما أسرع ما يتلقى اللعنات إذا ما كان الغاسق شراً إذا وقب ، وما أقل ما يتلقى التقدير إذا كان القارع خيراً إذا نطق . . بيدَ أن وجوده ، ذاك الذي لا ينتبه إليه أحدٌ ، لأنه خُلوّ من الصفات والإضافات ، هو خرافة كل الأحوال والأزمان ، والعلامة الفارقة التي تميز البيوت من الخرائب والأطلال . واليوم يتحدث بالحق بعد أن كان صامتاً طوال سنوات عديدة لا يقرعه أحد ، وإن قُرع فالكل يفزع ويهرع خائفاً إلى النوافذ .

إنه يوم جديد ، وهذا نهار مختلف يشرق على الباب العالي للبيت المقابل ويسفح نوره الساطع على حيطانه ، فيبدو المنظر دافئاً رغم أن الفصل شتاء .

كنت أنظر من نافذة غرفتي العلوية ، بعد أن عدت مبكرةً من كليتي

عن عمد ، لأشهد هذا النهار الشتائي الذي لا يبدو مختلفاً عن أي نهار شتائي آخر إلا لمن تغمره السعادة مثلي الآن ، فيرى العالم قد اكتمل وأصبح شديد الجمال . كنت أنظر إليه واضعةً ذقني على حافة الشباك أراقب عصفورة وحيدة تتأرجح برفق فوق سعفة كبيرة وهي تزقزق بصوت متقطع نسميه غناءً ولا ندري إن كان غناءً فعلاً ، أم شكوى من الجوع والعطش ، أم أنيناً من قلب محترق يبحث عن رفيق . ثمة مسمار معلق على جذع النخلة تستعمله الأم أحياناً مشجباً للسلال وضفائر أغصان الثوم الناشف ، ولكنه الآن يحمل قطعةً كبيرة من الخبز الأسمر متروكةً للطيور . . كانت العصافير الرشيقة هي التي تتحرك حولها وتنقر في لُبّها قطعاً صغيرة من الطعام ، بينما الحمائم البدينة تسير ببطء على الحشائش وهي تتلفت وتومئ برؤوسها إلى أمام لتلتقط بعض الفتات المتساقط على الأرض .

لن أغادر هذا الشباك حتى ينتهي اليوم إلى مستقر أخير . . لن أغادره حتى إن نعست أو عطشت . . وفي هذا المكان سأتناول غدائي وأشرب شايي وأراقب أخبار التلفزيون . . لا يهمني من غاب أو حضر ومن فاز أو خسر . . لن أكترث الساعة لغيري من الناس ، وسأظل أنظر من نافذة صغيرة كهذه وأراقب هذا النهار المختلف كيف يطلع على الباب العالي ويسفح نوره الساطع على الحيطان؟

ثمة أحاديث يومية كادت أن تقطع عجلتي في العودة إلى البيت ، ولكني أزحتها عن طريقي بالغبطة وتوسلت بريم أن تستعجل المغادرة إلى البيت ولأنها كانت تعرف السبب حق المعرفة ، فقد طارت بعد آخر محاضرة أنهتْها على عجل وخرجت إلى فناء الكلية لتجدني واقفة أنتظرها قرب باب السيارة .

لأول مرة لا يجعلني يوم بهيج أشعر بالأسى . . في الحقيقة شعرت

بذلك قليلاً عندما رأيت الأطفال يغادرون البيت إلى الحديقة راكضين طائرين كالنحل بعد الغداء ، فأفزعَ هبوبُهم المفاجئ الحمائمَ وجعلَها تهب طائرة دفعة واحدة وكأنها تؤذن للبدء بعيدٍ أو مهرجان . ولكن لا مكان في قلبي للأسى أكثر من ذلك . . وأنا مشغولةٌ بالنظر بعيداً إلى نهاية الشارع لعل ضجة أخرى تقوم هناك فتضع حداً لهذا الانتظار الطويل الذي يمطر الأفكار عن قصة حدثت منذ وقت طويل ، لكن خيوطها الأخيرة تتجمع الآن قرب الباب العالي وأمامه ، لتكتب لها نهاية جديدة في نهاية الشارع .

كيف خطر ببالي أن أسكن ذلك البيت ذا الباب العالي؟ وهل كان هو الذي اختارني عن عمد أم أنا التي اخترته دون قصد؟ . . وكم كانت غريبة تلك الأيام التي قضيتها فيه ، عندما حدث أنْ نظرت إليه ونظر إلي وابتسمنا وحُسم الأمر؟ . . . عندما كان العكس هو الصحيح . . كنت أنا موجودة في ذلك البيت المقابل ذي الباب العالي . . أنظر إلى هذا البيت الذي أنا موجودة فيه الآن وأستغربُ مما يحدث فيه من عجائب ختام .

دخلت من ذلك الباب العالي قبل ثلاثة أعوام ، فوجدته ثقيلاً يُفتح بصعوبة ، جعلني ذلك أدفعه بقوة لأدخل إلى البيت الذي استأجرتُه للتوّ لكي أنظفه قبل أن أنقل جميع أغراضي إليه . . لفت نظري أن قوس الياس الذي يرتفع فوق الباب العالي قد تحول إلى أجمة كثيفة . أما الحديقة التي يبدو أنها أُهملتْ منذ وقت طويل ، فقد تشابكت أغصانها ، وأصبحتْ في التفافها على بعضها البعض قريبة الشبه بالغابة . باب البيت الداخلي أيضاً كان ثقيلاً جداً . . دفعتُه بصعوبة لكي أخطو بقدمي اليمين إلى داخل البيت ، وأذكر أن أول ما رأيته عندما أزحت ستارة النافذة :

(٢)

أول ما رأيته عندما أزحت ستارة النافذة ، هو الشارع الصامت الذي لم يكن مزدحماً كما هو عليه الآن ، كان هادئاً يغط بالقيلولة . . إلى أن مر من أمام الباب رجل يجلس على كرسي متحرك . . حزين كأنه حديث العهد بعاهته . . وصديقه الذي يدفعه سعيد وكأنه يذهب به إلى مسابقة للتعرف على أعز الأصدقاء . لم يكن هناك سواهما في الزقاق أحد ، ونافذة المطبخ للبيت المقابل قد أُسدلت دونها ستارة سميكة جعلتني أنصرف عنها إلى قراءة صحيفة قديمة كانت موجودة تحت جهاز الهاتف . عندما قلبتها وجدتها تعود الى عام مضى كنت فيه بعيدة عن هذا البيت مسافةَ مئات الأميال :

«أواخر نيسان تتقارب الكواكب الخمسة الكبرى ، وهي عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ، في مشهد قد لا يتكرر خلال القرن . وقد قال عالم الفلك في مرصد البحرية الأمريكية إن تقارب الكواكب الخمسة سيبدأ يوم العشرين من نيسان وسيصل إلى الذروة في الرابع من أيار ، مما يشكل فرصة نادرة لرؤية الكواكب الخمسة بالعين المجردة في الوقت نفسه والمكان نفسه من السماء ، وهذا لا يحدث كثيراً . وذكر أن هذه الظاهرة النادرة قد لا تحدث مرة أخرى قبل مرور مئة أو خمسين عاماً ، وأنها لا تشكل خطراً على كوكب الأرض» .

أعدت الصحيفة إلى مكانها ونظرت إلى البيت المقابل لبيتي مرة

أخرى ، فكانت ستارة المطبخ لا تزال مسدلة ، ولكني رأيت قفصاً صغيراً معلقاً قرب النافذة . . خمّنت أن في القفص طائراً ، وأن صاحب البيت قد علقه خارج البيت ، ربما لكي يبدّد عنه الملل بضوء شمس مشرقة ، وكأن الشمس كانت تغري صاحبه للخروج بذلك الطائر الحبيس من ظلمات البيت إلى النور طلباً لحرية موهومة لا تتمادى في سخائها أكثر من منحه تلك الانتقالة اليومية بين الظلمة والنور .

الطيور كثيرة . . توقظني من النوم أصوات تغريدها وكأنني في الفردوس . . بلابل وعصافير وحمائم لا تكف عن التنطط والضحك والثرثرة والتنقل حافية من غصن إلى آخر ، قريرة العين ومسرورة وقادرة على أن تنقل عدوى سرورها إليك في لحظات . . هذا هو البيت الذي أريد . . له ، مثل البشر ، لسان يتحدث به ، ورائحة يتميز بها ، وذكريات يتحسر من أجلها . وكل بيوت هذا الزقاق تتحسر . . حدائقها جنان وسكانها الملائكة . . ويكفيني أن أنظر إليها من الخارج في رواحي ومجيئي بين يوم وآخر لكي أعرف أنّ لكل بيت حكايةً تُروى وأن كل الحكايات لا تصل في جزالتها إلى لوعة البلبلة الأم التي طارت كالمجنونة من على شجرة النارنج بحثاً عن طفلها البلبل . .

كان فتى الحدائق ، واسمه عمار ، يأتي إليّ بين يوم وآخر ليكنس الحديقة من الأوراق المتساقطة وقداح الزيتون ورُطب النخلة وثمار أخرى كثيرة لا تكف عن التساقط . . وعمار يزيح كل ذلك في تنكة يحملها ثم يمضي إلى بيت آخر . تنكة الأوراق المتساقطة تلك كانت تنطق بجمال الطبيعة حتى في فضلاتها وأوساخها ، فإذا ما أضاف إليها جيران آخرون تفالة الشاي أو قشور البطيخ حولوها إلى قذارة . كنت أنظر إليه من النافذة ، فلمحت القفص المعلق في البيت المقابل تحمله امرأة تبدو نحيلة طويلة القامة . . عندما رأتني تمهلت قليلاً ولم تجفل . . بل انتبهت بهدوء ورفعت

رأسها كما لو كانت تنظر إلى أحد ما يقف بالباب وسيقرع الجرس بعد قليل . . ثم طرأتْ على وقفتها حالة تأهب مفاجئة كأنها تنبأت بسورة غبار مفاجئة هبت في مكان قريب ، فاستدارت وتوارت داخل البيت . عمار لمح طفل البلبلة في عشه ، وفي لحظة خاطفة سدّد إليه صنبور الماء وأسقطه أرضاً . . وكان سيمضي به إلى السوق لبيعه إلى أقرانه هناك ، لولا أن البلبلة الأم انتفضت وهاجت تلوب بحثاً عن ابنها الضائع بلوعة لا تختلف عن لوعة أم ضاع منها ابنها في الزحام . . كانت تمشّط الأرض بعينيها ثم تقف على حبل الغسيل وتنظر ثانية ثم تتلفت وتطير وتبحث وهي تصيح وتنوح . . شالت نفسها وحطّتها ، فتركتُ النافذة وخرجتُ لأجد عمار مرتبكاً يضع يده في جيبه ويبتسم . . وقبل أن أطلب منه شيئاً قفز إلى السياج وأعاد قطعة من روح الأم إلى مكانها ، ثم قال متهكماً وهو يعيد الطفل إلى عشه :

– ضاعت مني الفلوس . . هل فرحت الآن؟

فضحكتُ وسألتُه :

– بكم كنت ستبيعه؟

قال :

– بألف دينار .

(٣)

في آب اللهّاب كان أول موعد لي مع الصباغ الذي ، قبل أن يدخل إلى البيت ، وقف قريباً من بابه ثم نظر ملياً إلى واجهته وقال :

- الواجهة أيضاً تحتاج إلى طلاء .

قلت له :

- لا أفكر إلا في طلاء غرفة الجلوس في الوقت الحاضر .

قال وهو يرفع نظره مرة أخرى إلى الواجهة ويدخن :

- الكل يقولون هكذا في البداية . .

القفص في البيت المقابل يعكس ، بين الفينة والفينة ، ضوءاً حاداً وكأنه يصدر من جسم معدني . كان الوقت ضحى ، فدعوت الصباغ ، وكان اسمه تحسين ، للدخول وإلقاء نظرة سريعة على غرفة الجلوس التي جاء لطلائها . باب الغرفة الذي يفضي إلى خارج البيت كان ثقيلاً هو الآخر مثل الباب الخارجي للبيت ، وعندما فتحته ليدخل اليها تحسين الصباغ شعرت بأن هناك من يدفعه من داخل البيت . رفع تحسين رأسه الى السقف وقال بأسف بالغ :

- جدرانها متسخة للغاية . . ما كان ينبغي تركها مدة طويلة دون طلاء .

قلت له :

- استأجرت البيت من فترة قصيرة ، وأحاول طلاء ما هو ضروري فقط . .

قال :

- أعرف هذا . . وأعرف أصحاب البيت الأصليين . . .

قلت :

- أتعرفهم؟

قال ، وسُحبُ الدخان لا تفارق فمه وشاربيه :

- أعرفهم وأعرف الكثير من أهل الزقاق . . قبل أربعين عاماً كانت هي المرة الأولى التي أدخل فيها إليه . . عندما وزع عبد الكريم قاسم هذه البيوت على الضباط الشباب في أوائل الستينيات . . كانت متشابهة الى حد التطابق ، ولكن الشيخ عبدالله أرسل في طلبي لإجراء بعض التحويرات على واجهة بيته . .الذي يقع على بعد ثلاثة بيوت من هنا .

رفع يده باتجاه اليمين وقال :

- لا زلت أذكر سيارة النفرات . . أنزلتني عند الشارع العام ، فدخلت منه إلى زقاقكم عن طريق حديقة واسعة كان الناس يدعونها بالمتنزه . .

قدمه سحقت سيكارته على الأرض . . نظرتُ إليها ، فانحنى عليها وقال :

-أينما يوجد الصباغون توجد أعقاب السكائر . . أنا آسف .

ثم رفع عقب السيكارة ورماه بحركة خاطفة إلى الخارج ، من خلال فتحة الباب الذي تركته مواربا بين المرآب وغرفة الجلوس . عادت يده حرة أكثر من قبل ، فوضع كفه على جبينه ثم قال :

- جئت للمرة الثانية قبل ثماني سنوات أو أكثر قليلاً . . كانت البيوت قد أُهملت طويلاً في سنوات الحصار ، وبعضها كان لا يزال يحمل آثار المطر الأسود الذي خلّفتْه سحب الدخان أيام القصف الأمريكي . ولكن في عام واحد ، هو العام ١٩٩٨ على ما أتذكر ، صبغتُ بيوتاً عدة في هذا الزقاق .

نظره كان متجهاً إلى النافذة وهو يستطرد في تعداد تلك البيوت التي قام بطلائها ، ويبدو أن الخارطة اعترضت نظراته المرسلة إلى الخارج ، فقطع كلامه وقال :

- سنرفع هذه الخريطة . .

وتقدم نحوها ثم لفها على شكل أسطوانة رقيقة سلمها لي فوضعتها على رف علوي من رفوف المكتبة ، ثم راح يجيل بصره قي أرجاء الغرفة إلى أن عاد إلى المكتبة العامرة بالكتب والتي تركها أهل البيت في عهدتي :

- وهذه المكتبة يجب تحريكها .

قلت له :

- ومتى ستبدأ؟

قال :

- يوم غد إن شئتِ .

وجاء في اليوم التالي ثم صعد السلم سبعة أيام متتالية زحفتْ فيها فرشاته من جدران غرفة الجلوس إلى سقفها . وفي الدقائق الفاصلة بين بداية شاي ونهايته ، كان ينتقل بين زمان وزمان ليفتح دفاتر مطوية بإحكام ويروي لي حكاية هذا البيت أو حكاية ذاك ، ثم يبقيني منشغلة بالأسطر الخالية التي كان يتركها بين حكاية وأخرى ممحوةً في ذمة النسيان أو متروكة على شكل فراغات تثير الفضول .

في لحظة وجدت نفسي أسأله وأنا أقدم له الشاي دون أن يهبط إلى الأرض :

- والبيت الذي يقابلني تماماً . . هل يسكنه أحد؟

بعد القدح الأخير من الشاي قال وهو يحرك عوداً من جريد النخل داخل علبة مملوءة بصبغ فاتح الزرقة مكتوب عليه (أصباغ حديثة) :

– هذا البيت الذي يقابلك صبغته أيضاً قبل أن تشتريه ختام ابنة الشيخ عبد الله رحمه الله من طبيب هاجر إلى أمريكا . . إنه ابن عمها . . وكان المفروض أن تتزوجه ، ولكن لم يحدث النصيب .

توقف عن تحريك العود ثم ارتفع كمه الأبيض في الهواء وقال :

– هذا الطبيب ابن عم ختام ، صبغت له غرفة الجلوس بالأزرق الفاتح أيضاً ، وكان ذلك قبل أن يهاجر ويبيع البيت .

صمتَ . . وغابت عنه نهاية الجملة بين علبته والتلفزيون ، ففضل أن يبقى صامتاً بعض الوقت ، وهو ينظر إلى عزيز علي يغني «يا جماعة والنبي» ، ثم غاب أكثر وقال وهو يحرك عوده ببطء شديد :

– في السبعينيات وبعد التأميم شاهدت عزيز علي لأول مرة في التلفزيون وهو يغني «البستان» . قالوا وقتها إن أحمد حسن البكر أرسل إليه خمسين ديناراً مكافأة . ربما لم تكوني أنت قد ولدت بعد .

ثم استطرد ضاحكاً :

– البكر أيضا أهدى سيارات لادا إلى منتخب الشباب عندما فاز على إيران .

عاد يحرك العود داخل العلبة وقال :

– كأنها البارحة .

وصلت فرشاة تحسين الصباغ أخيراً إلى الباب الخارجي لترسمه ، وحسبما طلبت ، بلونين يتناقضان من طرف إلى آخر . . الأبيض في مواجهة الشارع ، والأخضر الباهت بمواجهة الحديقة ، فهز الصباغ رأسه عجباً وقال إنها المرة الأولى التي يصبغ بها باباً بلونين . وقبل أن يطوي دفاتره كلها ويعيد المكتبة إلى مكانها ويمضي ، سألته عن ذلك المهاجر الذي اشترت ختام ، ابنة الشيخ عبدالله ، بيته ، فقال :

– لا أدري سوى أنه ابن عمها . . وجاء من الخارج ليتزوجها ويبقى ،

ولكنه سرعان ما قرر العودة إلى المَهجر فأبت هي الهجرة معه .

رمى عقب السيكارة إلى الحديقة ، وغسل فرشاته الصغيرة تحت الماء الصافي وضمها في كيس وضعه تحت جناحه . . بعد ذلك توقف عند الواجهة الأمامية للبيت المقابل وراح يتأملها طويلاً كمن يبحث فيها عن تلك المتعة الخفية التي كافأت صاحبها فور الانتهاء من عمل جميل ومتقن . طالت وقفته هناك أمام بيت ختام ، ابنة الشيخ عبدالله ، وطافت به رغبة للتدخين ، على ما يبدو ، إذ أخرج سيكارة وضعها بين شفتيه غير مشتعلة . . ثم تقدم باتجاه الباب ورفع يده اليسرى باتجاه الجرس ، وقبل أن يقرعه تراجع قليلاً ، ثم استدار باتجاهي وقال :

– الواجهة كلها بحاجة إلى طلاء جديد . . ولكن الشمس توشك على الغروب . . ربما أعود في وقت آخر .

(٤)

عادت العصافير والبلابل إلى التنطط وتبادل الأسرار والقهقهات . . وكان صندوق القمامة قد امتلأ بأكياس مكورة ومعقودة بإحكام . . كنت أملأها كل يوم بورق وقداح الأشجار المتساقطة إلى الأرض . الديدان التي كنت أعثر عليها في الزوايا كانت أجمل من أن تجرفها المكنسة . . وبيوت النمل ، التي تشبه فتحاتها فوهات البراكين ، تشي بأن أربابها من أصحاب الذوق الرفيع . . والوحوش الصغيرة تتسلق سيقان الأشجار إلى أعلى تبحث لها عن قوت تأكله ، فتصبح هي قوتاً لحمائم الحديقة وعصافيرها . . والعصافير أيضاً قد تصبح قوتاً للقطط ، وحياتها اللاهية في غير منأى عن الخطر .

غادر تحسين الصباغ ، فأعدت الخارطة إلى مكانها ورحتُ أُعيد ترتيب كتبي وأوراقي على رفوف مكتبة صغيرة في البيت الجديد الذي استأجرته ، بعد عودتي من الجبل الأخضر في ليبيا ، من ورثة رجل معروف كان ضابطاً في الحرس الملكي أيام أول عهد بائد في العراق ، وتقاعد قبل آخر عهد بائد من العهود البائدة ، وما أكثرها! ، ومات على سجادته وهو يصلي ميتةً هنية هادئة ، كما أخبرني بذلك ابنه البكر هشام الذي استأجرت البيت منه قبل أن يغادر إلى سوريا . كانت ابنة أخيه سارة تعمل معي في ليبيا قبل أن تهاجر مع زوجها إلى الدانمارك ، وهي التي اتصلت بي فجأة من هناك لتعرض عليّ هذا البيت ، عندما علِمتْ

بحاجتي إلى سكن آمن .

إنه لمن الحظ الحسن أن أسكن في بيت جدها ، هذا الرجل الذي عاصر الأزمان والأكوان كلها ، ولم أكن أدرك بعدُ ما في هذا البيت من أسرار ولا كنت قد اكتشفت شيئاً منها بعدُ . . فقط رحت أقلّب كتبي القديمة التي تركتُها طيلة سنوات الحصار في بيت أختي ، وأرتبها الآن في مكتبة مؤقتة مرتجلة لأجد فيها أياماً وتواريخ وعناوين تعود إلى عشر سنوات خلت ، فأفكر كيف مضت مثل لمح البصر!؟ . . وكيف ينساب العمر مثل أمكر الثعالب بخفة بين القدمين ، ليسلب منك أثمن وأجمل مقتنياتك ، ويخدعك طوال الوقت بأنك باقٍ في مكانك إلى الأبد ، وأنك لن تبلغ قط العمر الذي كنت ترى الآخرين من أهلك يبلغونه ، فتفزع منه وتحسب أنك ناجٍ منه إلى الأبد ، فإذا بلغته أو اقتنعت مكرهاً بأنك بلغته فإنه يوهمك بأنه يبدو عليك أصغر سناً دائماً وإلى الأبد؟ .

الظلام بدأ ينتشر بالتدريج ، ولم أعد أتمكن من قراءة ما كتبتُه بخط يدي على صفحات بعض الكتب . فتركت الغرفة المبعثرة المظلمة وصعدت إلى السطح لأتنسم قليلاً من هواء الله النقي . . بعيداً عن الجو الفاغم داخل البيت . كان الليل ، في الخارج ، ينتشر عارياً من الأقراط وقلائد الكهرباء التي انفرط عقدها منذ الحرب ، ولم تعد تزيّن عنقه منذ سنوات . . وكانت مصابيح بيوت الشارع مطفأة جميعاً ، لأن موعد تشغيل مولّد المحلة لم يحن بعد ، وكانت ختام تخرج إلى حديقة بيتها ، وهي تحمل الفانوس المضاء بيد ، وقفص الكناري الفارغ باليد الأخرى ، وتسير على مهل باتجاه الباب الخارجي للبيت ، متلمّسة طريقها بصعوبة في الظلام ، وينساب جسدها على مهل كمن يمشي حافياً على فراش من زجاج .

خفضت رأسي فورَ أنْ رأيتها ، خلف سياج السطح العالي . . ثم ، بعد

ثوان ، رفعت عيني على مهل وواصلت النظر إلى تلك المخلوقة التي كانت تتحرك كالسائرة في نومها وتتوجه ببطء شديد نحو الباب وتتعثر كمن يتلافى ، في مشيه ، شظايا زجاج مكسّر .

ظننتها تبحث عن طير الكناري الذي ترك قفصه ، كما سبق أنْ أخبرتْني ، فقلت لنفسي : ما أغرب هذه المرأة التي لا تخاف أن تخرج إلى الشارع في جنح الظلام المرعب هذا ، لتبحث عن طائرها الضائع في ظلام دامس! . شعرت قليلاً بالخوف منها ، ثم ازداد شعوري بالخوف أكثر وأكثر عندما ترددتْ إطلاقات نارية قادمة من الشارع الذي يقع خلف بيتي ، وسمعت أصوات جنود أمريكان ينادون : «go . . go . . go . .» تبعَها على الفور صوت دبابة كأنها تدور على نفسها ، ثم ترددتْ ضجة أبواب تُفتح ، وتعالت الصيحات مرة أخرى ، واستمرت عدة دقائق عاد بعدها الصمت من جديد وتوقفت الضجة وهدأ كل شيء .

نهضتُ إلى وضعي السابق محنية الرأس خلف سياج السطح العالي ، فرأيت ختام تقف خلف باب بيتها دون أن يبدو عليها الاكتراث للضجة التي حدثت قبل قليل ، ثم رفعتْ القفص الفارغ عالياً وهي تتمتم ببضع كلمات ، ورمته بعيداً عن البيت ، فطار عبر السياج إلى الهواء ، ثم سقط سقطة مدوية في عرض الشارع ظل صداها يتردد عدة ثوان مثل ليرات ذهب تخرخش . هلعتُ وسقط قلبي مع سقوط القفص إلى إسفلت الشارع ، وكانت الرجفة التي أحسستها مع سقوطه أشدّ وقعاً من تلك التي أحسستها مع لعلعة الرصاص وضجة المداهمة التي حدثت قبل قليل . . وعلى ما يبدو أن ما اعتدنا عليه لا يُخيفنا ، مهما كانت شدته ، ولكن ما فعلته تلك المرأة ، التي تتحرك مثل الشبح ، بدا غريباً ومقلقاً وخارجاً عن المألوف ، فرحت أتساءل : يا ترى ما بالها!؟ هل فعلتْ ذلك حزناً على طائرها الذي قالت إنه تركها واختفى فجأة؟ أم إن الذي كانت تحمله بيدها

هو شيء آخر غير قفص الكناري ، وأنا التي توهمتُه قفصاً لطول ما نظرتُ إليه عندما كان معلّقاً في الشمس خلال ساعات طوال من الأيام الفائتة؟

في الصباح ، وعندما جاء فتى الحدائق ، عمّار ، وطرق الباب ، كان أول ما قاله ، بعد أن ركن دراجته الهوائية في المرآب وبادرني بالتحية ، هو أن الأخبار السيئة لا تشجعه على البقاء في بغداد ، وأنه سيترك العمل فيها ويعود إلى بيت أهله في الديوانية لحين تهدأ الأمور وتنتهي على خير . قلت له :

– أين تذهب؟ لا تذهب . . ابقَ هنا في هذا الحي ، وهذا الشارع قد خلا من سكانه أو كاد ، كما ترى . . وأنت الوحيد الذي يأتي إلي بين صباح وآخر فأشعر بأني على قيد الحياة .

ثم سرحتُ بالأماكن والزوايا التي سيزرع فيها عمار الشتلات الجديدة التي اشتريتها من المشتل . ضحك عمار وأنا أضعها أمامه ، وقال محتداً أكثر منه مندهشاً :

– من أين تأتين بكل هذه السنادين ، وكل المشاتل مقفلة؟

قلت له :

– هناك مشتل واحد لا يزال يجازف بالبقاء مفتوحاً ، ويقع قرب نفق الشرطة .

قال بطريقته في الضحك التي تعبر عن الانزعاج :

– أعرفه . . ألم يغلق أبوابه بعد ، وكل تلك الحواجز مقامة حوله وبالقرب منه؟ بل إن سيارة مفخخة انفجرت بالقرب منه قبل أسبوع .

ثم ضحك بلا مبالاة ، وقال :

– وأغراض المحل أبو الموبايلات غدت شذر مذر .

قلت له :

– رأيت ذلك . . ورأيت قطع السيارة المحترقة المتروكة قرب المشتل .

قال وهو لا يزال غير مقتنع بفكرة الوصول إلى المشاتل في مثل هذه الظروف :

- ولكنه بعيد ، وما له حاجة .

قلت له بصوت عال فيه شيء من التأنيب :

- هل نسيت أني أعمل في كلية الزراعة؟ فالمشتل إذن ضروري . وإذا كان بعيداً ، فما أفعل في العطلة الصيفية سوى المشي . . وكلما طالت المسافة ، كان ذلك أفضل لانقضاء الوقت . .

توقفتْ الشتلة بين يديه والأرض ، وقال :

- عفية عليك . . هم رياضية . . وفلاحة . . وأستاذة . .؟

شتلة الرازقية ، التي كانت تتدلى شراشيب جذورها لتلامس التراب المحفور ، ملأت الجو برائحة أرض طيبة ، فقلت :

- بل قل إني عراقية . . هل تصدق أني مشيت مرة من ساحة النسور في الكرخ إلى معرض بغداد ، فمنتزه الزوراء ، فساحة المتحف ، ثم عبرت جسر الإذاعة إلى الرصافة ، وقطعت شارع الرشيد مشياً على الأقدام إلى الشورجة ، ومن هناك ابتعت لأهلي ثلاث لالات ومنقلة ، ثم واصلت المشي إلى الباب المعظم ، وعدت إلى البيت بحافلة تائهة مرت بي بالمصادفة .

أطلّتْ من عيني عمّار نظرة كالصيحة من شدة الاستغراب ، ثم قال :

- معقولة؟!

قلت له :

- حدث هذا وأكثر في ضربة أمريكا بعد حرب الكويت . . كنت لا أزال طالبة في الكلية ، وبعض الأساتذة جاءوا إلى أبي غريب على البايسكلات .

نظر إلى دراجته الهوائية المركونة قرب الباب ، وقال مبتسماً :

- على البايسكلات؟

- نعم . . لعلك كنت في العام الأول من عمرك حينئذ ، ولو سألتَ أباك أو أحد أقاربك الذين كانوا في الجيش هناك ، لقال لك إنه قد عاد من الكويت إلى بيته مشياً على الأقدام بعد الانسحاب . هكذا نحن ، منذ أن وعينا وفتحنا أعيننا على هذه الدنيا ونحن نركض ونمشي ونزحف على البطون . . في كل يوم انقلاب ، وفي كل عام حرب . . وقد جربنا كل شيء جرّبه أو لم يجربه غيرنا ، وعشنا في عصر غير العصور التي يعيشها البشر ، وآخر المطاف قتلنا بعضنا بعضاً . اسكتْ يا عمار . . اسكت . . فنحن رأينا أياماً أكثر سواداً من الهندس .

بدا كلامي وكأنه لا يعنيه ، وهو يقف على مبعدة أميال وأجيال منه ، ولكنه يتظاهر بالإصغاء ليدعني أتابع . تمتم :

- مع ذلك فأنتم أحسن منا بكثير . . ماذا نقول نحن إذن؟

قلت :

- ربما عشنا ردحاً طيباً من الزمان أفضل منكم . . هذا صحيح . ولكن ما من شيء أكيد في أن الأمور ستمضي بسلام إلى نهايتها . ومنذ أن بدأ الناس يفقدون أولادهم في الحرب مع إيران ، انتهى إلى الأبد ذلك العصر الذي لم نكن نسمع فيه إلا بموت العجائز والشيوخ .

قال عمار ، وهو يضحك ساخراً كمن لا يهتم على الإطلاق بما كنت أقوله :

- الآن العجائز قاعدات على قلوبنا ، والشباب يموتون بالجملة .

قلت :

- إنهم دائماً يموتون . . ويقولون إن مواليد ١٩٤٧ انقضوا من الوجود في العراق . هل أعجبتك الورود؟

ببطء قطعتْ نظراته الحديقة ، ولكنه لم يجب عن سؤالي ، إنما قال

وهو يعود إلى الضحك :

- أنا يمكن من مواليد ١٩٩٤ . . وأنتِ من أي مواليد؟

- أنا ولدت في اليوم الأخير من سنة ١٩٧٤ .

نظر لي باهتمام مفاجئ وقال :

- خطية .

- لماذا خطية؟

- انحسبتْ عليك سنة بالغلط .

- أويلاه يا عمار . إحنا عمرنا كله انحسب علينا غلط . .

ثم ضحكتُ وقلت له :

- هل تعرف ، إني في العام ١٩٩٤ ، الذي ولدتَ أنت فيه ، شاركتُ في المظاهرات الحاشدة التي قامت في ساحة الحرية بالكرادة .

- مظاهرات؟

- طبعاً . . وزعتْ (جلود) منتجاتها الفاخرة على الناس في التسعينات ، فقامت مظاهرة هناك للحصول على الجنط والقماصل .

- مظاهرات من أجل جنط وقماصل؟

- ومن أجل الأحذية أيضاً .

ضحك عمار حتى دمعت عيناه وكأنه لم يجد شيئاً مهماً في حديثي سوى تلك الخاتمة . فقلت :

- والآن كفاني من تذكر كل تلك السخافات ، وأَخبرْني يا عمار . . من سيعتني بهذا القوس الجميل من الياس إذا ذهبتَ؟

قال وهو يضع عدّته ومقص الحديقة العملاق على دراجته الهوائية :

- لا تخافي . . سأعود .

قلت :

- وإن تأخرتَ؟ قد يموت .

قال :

- الياس كالقطط بسبع أرواح ، فلا تخافي عليه .

ولما انطلق بدراجته من باب الكراج إلى الشارع سعيداً كما في كل مرة ، وكأنه يركب الدراجة للمرة الأولى صحت به :

- أنت سريع يا عمار . . على مهلك .

فالتفت إليّ وهو يضحك مثل طفل يرمي نفسه في حضن أمه :

- لا تخافي عليّ . . أنا أيضاً مثل القطط ، بسبع أرواح .

(٥)

جلست أُصغي إلى أصوات الليل الغامضة وأنا أنظر إلى آخر ما تبقى من عناقيد العنب الناشف التي خلفتْها أواخر شهر أيلول على الأغصان المتعرشة على القمرية . وتلك العناقيد ما كانت لتبدو للعيان تحت السماء التي كان قمرها يحتضر في المحاق ، ولكن ضوء باب بيت ختام المقابل لبيتي كان مشتعلاً ويلقي شعاعاً باهتاً على الحديقة تستضيء به القمرية . وكنت أسمع صوت غمغمة تأتي خافتةً من هناك وتتواصل ، ثم تعلو شيئاً فشيئاً وهي تقترب مني أكثر وأكثر ، وتصبح كالوشوشات التي تحيط بي بعد أن تنطلق من مكان مجاور . لا بد أنه خداع الأذن في وهدة الليل ولا شك في أنها أصوات نباتات برية تدوسها الأقدام تتصادى من مكان بعيد يبدو لنا أنه جد قريب . ولكن الصوت أصبح خلفي فجأة وكأنه يتحدث في أذني ، ففزعت والتفتُّ مذعورة إلى الوراء فلم أجد أحداً خلفي . الصوت استمر يوشوش في مكان قريب ويقول لي : «أين أنتِ؟» ، ثم يجيبه صوت آخر وكأنه أخفض من الأول : «أنا هنا» .

كل الهواجس حاصرتني كما الجدران ، فأقعدتني في مكاني ولم أستطع مغادرته من شدة الخوف ، بل اكتفيت بالتلفت حولي بذعر لحين وجدت رأساً كثيف الشعر بمستوى قامة الإنسان يطل من باب البيت ويقول :

- أين أنتِ؟

ثم يرد على نفسه بنبرة أقل همساً ويقول :

- أنا هنا .

تبينتُ ، بعد أن زال الهلع عني قليلاً ، أنه رأس ختام ، فنهضت من الأرجوحة واقتربت منها وقلت وأنا أتنهد بعمق بعد أن كنت قد قطعت الأنفاس :

- تفضلي

ولم تجبني بشيء ، وإنما استدارت وتجنبتني ، ثم عادت مثلما جاءت رأساً كثيفاً يمشي في الظلام ودخلتْ إلى بيتها دون أن تتفوه بكلمة واحدة . إنها تفعل كما يفعل الناس في الأحلام ، عندما ينظرون إليك من نوافذ ضيقة جداً أو يتحدثون إليك من بئر عميقة أو يجلسون في أماكن غريبة ، كالمصاعد أو حافّات المرتفعات أو الساحات العامة . وها هي الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً ، ونوافذ بيتها العلوية جميعها مضاءة ، ولا شك في أن ما حدث قبل قليل لم يكن حلماً ، إنما قد حدث فعلاً ، ما دمت قد رأيته هذه المرة من مسافة قريبة للغاية ، وفي مكان لا أجهله ، هو باب بيتي ، فمضيت إليه . . وبقيت واقفة قربه لعل هناك تتمة معقولة لما حدث قبل قليل ، فماذا رأيتُ خلل الظلمة الحالكة التي يخترقها الضوء المشتعل القادم من نوافذ البيت العلوية؟ رأيت رأسها ذا الشعر الكثيف يرتفع مع الكرسي الخشبي الذي كانت تحمله . . ثم رأيت جسمها يرتفع مع الكرسي الخشبي الذي طار في الهواء وسقط على حبل مربوط في الحديقة . توجهتْ إليه ختام مرة أخرى ، ثم رفعتْه من فوق الحبل الذي يبدو أنه اعترض طريق السقوط ، ورمته إلى الشارع ، ثم خرجت بعده مباشرة من الباب ونظرت إلى الكرسي ، ثم إلى بيتي بعد ذلك مباشرة .

بعد أن نظرتْ إلى بيتي نظرتْ باتجاهي وكأنها تراني ، فهوى قلبي وهبطتُ معه إلى الأرض ورحت أنظر من ثقوب الزخرفة النباتية التي تروز

أعالي الباب ، لأجد رأسها لا يزال مرتفعاً في الهواء . والآن اقتربتْ من باب بيتي وأطلت بشعرها الكثيف من فوقه لتنظر إلى الحديقة ، ولما لم تجد أحداً هناك ولا انتبهت إلى وجودي خلف الباب ، عادت إلى الكرسي المرميّ في الشارع ، ونقلته من وضعه المقلوب إلى وضع صحيح قبل أن تنساب بخفة وهدوء إلى البيت . إنها تبدو امرأة حقيقية الآن . . مئة بالمئة هي ختام التي زرتها قبل أيام ، وروت لي قصة طائرها الهارب من القفص في تناغم فريد من نوعه مع قصة ابن عمها الذي هاجر بدلاً من أن يتزوجها ، وتتخيل كلما رن جرس الهاتف أن يكون هو المتصل . . فهل أتخيل أنا أيضاً هذه الأشياء التي تفعلها هذه المرأة الغريبة في عتمة الليل؟

خائفة من تلك الخيالات ، أخذتني غفوة قصيرة على فراش الأرجوحة ، حيث وجدت أمي التي كانت قد ماتت ، قبل سفري إلى الجبل الأخضر ، تقف بجانبي ، وسمعتها تقول :

– هيا قومي من هنا ، وادخلي إلى البيت .

فرحت جداً وأردت أن أحتضنها ، لكنها اختفت مع نهاية الحلم ، فهرعتُ مسرعة إلى داخل البيت وأنا أتلمس طريقي في الظلام على عجل . . وجدت صعوبة في فتح باب المطبخ . . ما بال أبواب هذا البيت لا تُفتح بسهولة!؟ . . هجمت عليه بيدي ، وما إنْ دفعته بقوة حتى تركته مفتوحاً من شدة الاستعجال . ولم أكد أصل إلى غرفة الضيوف حتى دوّى انفجار قريب تكسّرت له بعض زجاجات البيت وراحت المروحيات تحلّق في الجو بعد قليل ، وجاءت سيارات الشرطة ، وصفاراتها تعوي وتصرخ . ولشدة ما بدا كلُّ شيء حدثاً غريباً وغير معقول قلت لنفسي :

– هل لهذه المرأة التي رمت الكرسي علاقة بالانفجار؟

وتهاويت على أريكة غرفة الضيوف .

(٦)

الانفجار ، الذي حدث بعد أن جاءتني أمي في المنام وأمرتني بالنهوض والدخول الى البيت ، كان غير بعيد عن زاوية الشارع الذي تحولتْ بعض بيوته إلى ركام . ولم يكن بالطبع للكرسي الذي رمته ختام علاقة بهذا الانفجار ، ولكن بعض المارة قالوا إن ذلك البيت ، الذي جاء الأمريكان وفجروه ليلاً ، كان مليئاً بالعتاد والصواريخ ، وإن المسلحين كانوا يلوذون به للاحتماء بين البيوت . وبعضهم لا يزال موجوداً في المنطقة .

عندما رويت الحلم لصديقتي ريم وأنا أذهب بسيارتها إلى الكلية لاستلام الراتب وإكمال امتحانات الطلاب المعيدين بعد انقضاء العطلة الصيفية ، ضحكتْ من قلبها وقالت :

- كيف تمكنتْ روح أمك من الوصول إليك ، والتجول ممنوع؟ كيف لم يضعوا رأسها في كيس أسود؟ هل كان على رأسها كيس أسود؟

ضحكتُ وقلت :

- كلا . . كانت ملثمة .

الطريق إلى الكلية أصبح مليئاً بالسواتر الترابية والحواجز الكونكيرتية والأشجار اليابسة والأزبال ، وما كنا نستطيع اجتيازه إلا بعد أن تُظهر ريم باجاً خاصاً بسيارتها يسمح لها بعبور نقطة السيطرة . كنا نضع الإشاربات على رؤوسنا ولا نتزين أو نتجمل ، بل نتماهى مع هذا الطريق الذي كان جميلاً ذات يوم ، ثم نسرع دون أن نتجول أو نتوقف عند المناحل والمشاتل

التي كانت الكلية تعج بها فيما مضى . . هي تركض إلى محاضراتها في (علم الوراثة) وأنا أركض إلى المختبر لأعرض على طلابي سلايدات القراد والفطريات والديدان الثعبانية وباقي الطفيليات التي تلتصق بالنباتات وتمتص عصاراتها ، ثم نعود أنا وإياها بعد ذلك على عجل . . ولا يهم أن نتعطر أو نعدّل ثيابنا قبل الخروج ، أو أن ننسى قراءة الفاتحة على أرواح أهلينا الراقدين في مقبرة الكرخ التي نمر بها كل يوم . . لم نعد نترحم عليهم من شدة العجلة والارتباك ، ونحن نتناوش الطريق الخطر الذي تترك له ريم سيارتها متربة ، مثله ومثلنا ، منعاً للأذى ولفت الأنظار .

منذ أن استلمت راتبي الأول ، قبل عشرة أعوام ، وأنا أستعمل هذا الطريق الريفي المستقيم الذي يربط ساحة الأردن بساحة العمل الشعبي ثم بكلية الزراعة في أبي غريب . كان ذلك قبل سفري إلى الجبل الأخضر في منتصف التسعينيات . وكانت تحيط به بساتين الأشجار المثمرة التي تظهر محاذية للطريق أحياناً وتختفي أحياناً أخرى عن العيان ، خلف بيوت الفلاحين الذين يبيعون الحليب والقشطة ، أو خلف مباني مؤسساتٍ ودوائرَ حكومية عديدة تتوزع جانبي هذا الطريق ، ككلية الطب البيطري ومعمل الألبان وكلية الزراعة . وكانت أول سيارة قدتها في ذلك الطريق من طراز (برازيلي) بيضاء صغيرة وجميلة . عندما انجرح إطارها مرة وانفجر في الطريق ، توقف أحد المارة وجلب لها حجارة ضخمة وضع عليها جسم السيارة لحين تبديل الإطار التالف بالآخر الاحتياطي . وبعد أن رأيته ينهي مهمته بمهارة فائقة ، حملت الحجارة وأعدتها إلى المكان الذي كانت فيه بين باقي الحجارة ، فضحك مني الرجل وهز رأسه عجباً . تُرى ماذا يمكن أن يقول الآن؟! كم سيهز رأسه بالعجب إذا ما رأى هذين الجدارين الكونكيريتيين الهائلين اللذين يحيطان بالطريق من الجانبين ، ابتداءً من ساحة نفق الشرطة حتى كلية الزراعة؟ .

كنت قصدت هذه الكلية مع أمي ذات يوم من أجل شراء قارورة عسل من مناحلها ، فوقعتُ في غرامها وقررت الدراسة فيها . سمعني نحالها الدكتور أقول ذلك فراح يحدثنا عن أسرار العسل ومعجزاته . . قال لنا إن النحلة ، لكي تجمع كيلوغراماً واحداً من العسل فإنها تتنقل بين الزهور مسافة تعادل إحدى عشرة مرةً قدر محيط الأرض عند خط الاستواء ، وقال أيضاً إن العسل تُعرف جودته من أخذ لحسة منه بالإصبع . فإذا ما حسبنا من الواحد إلى العشرة والخيط لا ينقطع فهو جيد جداً . أما شهر العسل فأصله بابلي حيث كان يأتي أهل العروس ، وعلى مدى شهر كامل ، بقوارير العسل إلى العرسان الجدد لكي يقويهم ويمنحهم الطاقة ، ومن هنا جاءت تسمية هذا الشهر بشهر العسل .

الطريق إلى الكلية لم يعد مدافاً بذلك العسل الصافي . . رحل الدكتور في اتجاه ورحلت أنا في اتجاه آخر ، وأصبح الطريق مقفراً تحيط به الأسلاك الشائكة التي تحط عليها الأوساخ وأكياس النايلون المتطايرة . . تسمّيها ريم ساخرةً زنابق الورد . أما الجدران التي كانت تحيط بنا من كل جانب ، وتواجهنا في كل مكان ، فتُذكّرني بسور سليمان الذي ياما حصّنتْ به جدتي البيت وأهل البيت من كل بيْن ومكروه . الآن لم تعد البيوت وحدها محصّنة بالأسوار ، ولكن الشوارع والساحات والجسور ، شأنها شأن السجون والمعتقلات ، محاطة بالجدران والحصون والسيطرات ، وبين كل جدار وجدار يوجد جدار ، وجدار سليمان هو نفسه ربما يحتاج إلى سور ليحميه ويحصنه من كل مكروه .

وجدت نفسي وأنا أبحث في بطون الكتب عن المعنى لسور سليمان ، أنظر إلى المرايا . . وكيف أنها عُرفت في العصر البرونزي والحجري عندما عُثر عليها على شكل رقائق حجرية أو معدنية صقيلة ، ولكنها لم تُعرف بشكلها المزخرف والمطعّم بالأحجار إلا في القرن السابع بالصين ، حيث لم

تعد صفائح لّاعة حسب ، بل تحفاً فنية . جعلني ذلك أتساءل تُرى من لا يرى نفسه كيف يعيش ، وكيف يختال بنفسه . . مَن لا يعرف شكل وجهه ، أو كيف لا يموت كمداً وهو يرى إعجاب الناس به ولا يستطيع أو يقدر على الإعجاب بنفسه؟ ، أوليس أعظم ما يملكه الإنسان من مسرات الوجود يعود إلى المرايا؟ . . فكيف عاش الإنسان بلا مرايا؟ . . وكيف ، لولا هذه المجنونة ، كان اختال بنفسه ومات من الخيلاء؟ . .

لعل البحث عن معاني الكلمات ، التي أصبحت بين أيدينا متداولة وثابتة الدلالة والجنان ، لا يزيد المرء إلا حيرة وتعباً فيجنح مثلي إلى قلب جدته الطيبة ما دام الطريق مستحيلاً إلى قلب الشاعر . سور سليمان توجد حوله عدة أفكار وآراء ، بعضها يقول إن سليمان عليه السلام قد بنى سوراً حول أورشليم لا يُعرِف مكانه على وجه الدقة .وقد هدمه البابليون في القرن الثاني قبل الميلاد . ثم جاء هيرودس الكبير وحصّن هذا السور الذي تشكل بقاياه أساس القلعة الموجودة في الوقت الحاضر ، وعند المكان الذي صار مبكى اليهود فيما بعد . سور سليمان قادني أيضا إلى اسم بغداد التي وصل إلينا ذكرها من عهد حمورابي ، الملك العظيم سادس ملوك بابل الأولى ، صاحب المسلة الشهيرة باِسْمه والتي وُضعت في بابل على شكل عمود أسود منقوشة عليه صورة الملك حمورابي وهو يستمع إلى إله الشمس وتحته كاتب يسجل القوانين . ثم من بغداد التفتُّ إلى قصاصات كثيرة كُتبت على إحداها ما كنت قد قرأته في كتاب «الخلود» لروائي تشيكي اسمه ميلان كونديرا عن وجود أسلوبين لترسيخ أصالة النفس والاقتناع بتفردها الذي لا يضاهى . . أسلوب الطرح وأسلوب الجمع . ففي أسلوب الطرح تتفرد نفسك في أن تطرح منها كل شيء خارجي مستعار كي تتوصل إلى جوهرها النقي حتى بالمجازفة في الوصول إلى نقطة الصفر جراء التخلص من جميع الصفات المستعارة أو المصطنعة . أما أسلوب

الجمع فخلاف ذلك تماماً ، فلكي تجعل نفسك أكثر فخامة ووضوحاً واستحواذاً تظل تضيف إليها الكثير من الصفات ، وتحاول أن تجد نفسك بها وإن كان ذلك بالمجازفة في الوصول إلى النقطة التي تندفن فيها الذات جراء الصفات الإضافية . في قصاصة أخرى يقول الكاتب شوقي زين إن الشر ، وعلى عكس ما يظنه الكثيرون ، ليس نتاجا لخواء المعنى وأفول القيمة وبربرية الفعل ووحشية التصور ، وإنما هو دليل الامتلاء في المعنى إلى حد التخمة الذي تنقطع معه الذات عن قنواتها في المراجعة والنقد والتشكيك والمساءلة .

لقد حاولت ذات يوم أن أطبق شيئاً قرأته في رواية عالمية على الكائنات المجهرية التي أعرض سلايداتها على طلبتي في المختبر ، فوجدت استحالة أن يكون ذلك الصفر ، أو الجوهر النقي ، ممكناً إلا في اللحظة التي تتكون فيها حبوب الطلع نظيفة وناعمة الملمس وشديدة البياض ومنضودة في رحمها المغلوف الذي يشبه القارب . بعد ذلك ، إذا ما انفتح ذلك القارب وطار غبارها في الهواء ستلتصق بها الكائنات الحية والميتة بلا هوادة وتملؤها بالأوساخ والفطريات والبكتريا والطحالب والأهداب والأشنات والفيروسات والشوائب والحشرات والأبخرة والأملاح . .

مر الزمان طويلاً على تلك الأيام التي كنت أنقل فيها الاقتباسات من الكتب وأحفظها في دفتر خاص أحفظه بين كتب و كتب و كتب . . جعلتني أرى السهوب والكهوف المظلمة التي صادفتني في الطريق أجمل من الوصول إلى نهاية الطريق . تارة في شمس ساطعة . . وأخرى في كهف مظلم . . تلك هي دراين الكتب . . وكان ذلك في آخر ذيول الزمان الهارب . . أما الآن فإن خارطتي يرسمها سوق سهام العبيدي الذي عادةً ما أبدأ تجوالي به وبما حوله من متاهات ، أتنقل بعده بين الأفران والمحال وباعة الخضروات ، أو أتوقف عند المشتل أو المكوى أو الكهربائي أو الصيدلية .

(٧)

كان قاسياً هذا الصيف ، وأنا أقطعه وحيدةَ المنزل ، أحاول أن أزيح عنه طبقات الغبار الأحمر التي تطمر البيت بين عاصفة وأخرى ، بجعل الماء الصافي ينهمر ويطرطش في أرجاء البيت ليعيد له رائحة الطابوق الأولى ويغسله إلى جمال قديم هو الوحيد الذي تبقّى ، بين خرائب العالم الخارجي الذي لم يعد له وجود ، وربما احتاج الأمر إلى تلسكوب فضائي جبار لاكتشاف ما تبقى فيه من جمال خافت لا زال موجوداً تحت غبار الحرب وكونكريت الحواجز ومخلفات الأنقاض . أما جرس الباب أعز صديق أرضي لجميع أفراد العائلة ، فقد اختفى مثلما اختفى أعز الأصدقاء من البشر واختفت ، مع منع التجوال ، زيارات الأهل والأقرباء المسائية وحفلات الأعراس وأماكن اللهو والمطاعم والمسارح ومحلات الحلاقة ، فالجِمال قد غرّبت للشام وما عادت إلينا ، وكيف تعود والطريق مغلق بقفل من حديد؟ . . والأيام التي تمضي مع دوران الأرض حول الشمس ، لكي تُعاش كما ينبغي ، إذا بها على هذه الأرض واقفة لا تدور؟ ، مكان جيد للموت لا للحياة . . الموت واحد وإنْ اختلفت الأسماء . . تارة أبو عمر الذي قُتل وهو يقف في باب البيت ، وتارة أبو حيدر الذي باغته الرصاص وهو يقفل محله قبل أن يذهب إلى البيت . .

هكذا كنت أفكر مع نفسي وأنا أقلّب المجلات القديمة تباعاً ، فأخذتني من المرايا إلى سور سليمان ثم الى بغداد وشارع الرشيد ثم شارع المتنبي فشارع ١٤ رمضان ، عندما تشممت رائحة تملأ المكان بعبق لطيف يشبه

رائحة عود ثقاب مشتعل . كانت أفكاري قد أعلنتْ فجأة ، بعد تلك الجولة بين المجلات ، عن حالة شديدة من الاحتشاد والحنين لكل الأمكنة الصباحية الجميلة التي أفتقدُها منذ سنوات ، ولا أجد سبيلاً إلى الوصول إليها مرة أخرى إلا عبر التجوال وحيدة في أرض الخيال . أخبار التلفزيون تقتطف من وجوه الحرب وجها يقول كلاماً معاداً عن أسباب الحرب ونواياها الطيبة بينما أزرار الوجه تتقطع من الخيلاء وتخمة المعنى . . لم يكن وجه بوش الأسوأ بين وجهي رامسفيلد وكوندليزا رايز ، ولكن رائحة الدخان كانت قوية وآخذة بالانتشار ، فنهضت إلى نافذة المطبخ ، ونظرت عبرها إلى الخارج لأرى دخاناً خفيفاً يتصاعد من بيت ختام ، ويبدو من خلف السياج وكأنه ينبعث من حطب مشتعل . كان الوقت قد تجاوز فترة الظهيرة بقليل . . وهناك في الشارع ما من صوت لأحد ، قد يكون خارج بيته ، ولا أثر لرأس أشيب من تلك الرؤوس البيض التي تمر أحياناً من خلف الباب وهي تتمشى بين بيوتها والأسواق . كل شيء في تلك الظهيرة كان هادئاً ما عدا رأسي الذي كانت صورته تنعكس في المرآة التي أضعها فوق حوض غسيل الصحون المجاور للنافذة . . هذا غريب ، فأنا الآن أحاول استرجاع وجه ختام فلا أستطيع ، بينما أسورتها الفضية المرصعة بالميناء السوداء ماثلة أمامي الآن وواضحة في ذهني تمام الوضوح .

بعد الدخان تصاعدت النار ، فقلت لعلها تحرق بعض نفايات الحديقة أو لعله ثالث يوم من أيام ختام مع لياليها الغريبة . تريثتُ وبقيتْ عيوني شاخصة إلى غيوم الدخان ، بعد أن كنت أنظر إلى وجهي في المرآة فوق حوض الغسيل . ولكن ألسنة اللهب بدأت تتصاعد من خلف سياج بيت ختام ، فخرجت من باب المطبخ إلى باب بيتها ، ووقفت أنظر إليها وهي تجلس وسط الحديقة قرب دائرة مشتعلة من النار ترمي إليها ، بحماسة ، الكثير من الأوراق والصور والقرطاسية . صحت بصوت عال ، ربما أملتْه

عليّ غرابة المنظر ، وليس بُعْد المسافة بيني وبينها :

- مرحباً .

لم تردّ ، وظلت منشغلة برمي الأوراق إلى النار . ربما هي لم تسمعني في زحمة ذلك الانشغال . قلت مرة أخرى ، وبصوت أعلى :

- صباح الخير ، ست ختام .

سمعتني فالتفتتْ نحوي وهي تضحك ، وقد بدا رأسها ، والنار عالية من خلفه ، وكأنه كومة قش ستأخذ من النار وتشتعل بها على الفور . أدركت فوراً أنني قد تسرعت بهلعي وركضي وخوفي عليها . وتلك كانت مصيبة أنْ أعتقد أن العالم سينهار بعد أية مصيبة تحدث من حولي ، فيأخذ مني الانفعال أيَّ مأخذ ، وسرعان ما أندم على ذلك بعد قليل . مع ذلك قلت لها ، وأنا أصرخ من الانفعال :

- ست ختام . . النار . . النار . . النار . .

نهضتْ من مكانها بهدوء شديد ، وتقدمت نحوي وقالت باستفهام أحرجني ، وبدا أن هذا ما تفعله دائماً رداً على المتطفلين :

- تفضلي؟

ثم فتحت الباب دون أن أطلب منها ذلك ، وقالت مرة أخرى بنبرة أقرب إلى الدعوة منها إلى الاستفهام :

- تفضلي .

كنت قد عرفت أني تسرّعت بالصياح والصراخ والانفعال ، وأن النار المشتعلة في أرض الحديقة ما هي إلا وليمة من صنع يديها وليست بحريق ، وهي ، وإن بدت كبيرة ومثيرة للخوف ، فإنها تحت السيطرة ، بل أكثر من ذلك هي تبدو فعلاً ساراً وتشعرها بالسعادة . قلت :

- آسفة . . لكن النار جعلتني أظنها حريقاً .

ضحكتْ وهي واقفة قربي وقد بدا عليها الارتياح الشديد من النظر

إلى النار المشتعلة والتنفس بعمق من رائحتها الطيبة :

- أليست هي حريقا أيضاً؟

قلت وأنا أتنهّد لأُخرج من صدري كل الانفعالات :

- قصدتُ نوعاً آخر من الحريق؟

قالت وهي تحرك علبة الثقاب بيدها ، فتخشخش العيدان في داخلها :

- كل الحرائق تتشابه ، على شرط أن لا يموت فيها البشر .

قلت :

- الحريق الذي يبدو أنه تحت السيطرة .

قالت :

- فهمت .

قلت :

- آسفة جداً .

قالت وهي تبتسم بعطف :

- لا عليك . .

ولم تعلق بأكثر من ذلك ، وسرعان ما انغلقت على نفسها من جديد ، إذ اختلط عطفها بانزعاج وكأني قد أفسدت عليها لذة عظيمة مطابقة لمتعة النظر إلى زجاج البيت وجدرانه وستائره بعد تنظيف يوم العيد . فكرت ، وأنا أنظر إليها تبتسم بعطف ، «هل بالإمكان استخراج وجه أصلي قديم ونقي من هذا الوجه الشاحب الباهت المخيف بعض الشيء والطيب في بعضه الآخر؟» . . تلك كانت هوايتي المزمنة مع وجوه البشر . . أن أمسح عنها غشاوة اليأس والشحوب والظلم ، واستخلص الوجوه الجوهرية الأولى من وجوههم الأخيرة التي عبث بها الزمن وملأها بالتعابير والخطوط الفائضة عن الحاجة . وكانت تكفي أحيانا نظرة واحدة لإزالة الظلم عن المظلوم ، بل إني من شدة كرهي لهذه التعابير التي تظلم الوجوه ، ولا تدل إلا على

الشيخوخة والتعب ، أصبحتُ أبحث عن الطفولة في وجوه الجميع وأحاول استخلاص الوضوح من أعتى درجات الغموض . .

إذن بعد أن جعلتْني ابتسامتُها العذبة أستخلص صورتها الأصلية ، التي كانت عليها فيما مضى ، بدون هذا الغشاء من الحزن على الوجه ، وبدون هذا الغيم على العينين ، وبدون هذا البياض على الشعر الأشيب ، ارتحت لها على الفور ونويت أن أسألها عمّا كنت أراها تفعله في الأيام الماضية وعمّا تفعله الآن . لكن ابتسامتها الحنون التي أضاءت لي وجهها القديم ، سرعان ما انطفأت وتلاشت ، وكأن ليس للابتسامة الصادقة في منتصف العمر من قدرة أو بأس للبقاء أكثر مما موجود في قطرة ماء باردة تسقط فوق حديد ساخن .

لم أستطع منع نفسي من خطف نظرة سريعة على ما كانت النار تلتهمه من طعام ، فوجدت صوراً عائلية توهمت لحظةً أن بعضها صورٌ عائلية تخصني وتخص أهلي لشدة ما يحدث من تشابه بين وجوه الناس وملابسهم وطرق حياتهم في العصر الواحد . ولما وجدت التشابه راسخاً وكبيراً إلى حد التطابق التام ، كاد الانفعال أن يأخذ مني أي مأخذ ، وقررت أن أتدخل لكي أمنعها من أن تفعل أمراً كنت أجده مؤلماً وشديد الصعوبة ، بينما كانت ، كما يبدو ، تجده سهلاً وممتعاً كمن لا يستطيع احتمال الماضي أكثر من ذلك ، فقرر أن يحرقه ولا أحد له الحق أو القدرة على منعه من القيام بذلك . هذا ما نطقتْ به نظرتها التي كانت تقف لي بالمرصاد وكأنني عدو لدود . كان واضحاً أن راحتها تتحقق بجوار تلك المحرقة ، فاكتفيت بإمعان النظر في تلك الصور والأوراق التي كانت تحترق وتطقطق وتطلق دخاناً أسود يشوش رؤيتي أحياناً ويُخْلي الطريق لي أحياناً أخرى ؛ لكي أتأمل بقايا محترقة لخرائط وتذاكر طائرات وأدلّة سفر وبطاقات سينمات ومسارح ومتاحف ومهرجانات وحفلات غنائية ، ومعها

صور كبيرة تحترق لجيفارا وعبد الكريم قاسم وفرقة الخنافس ، وأشرطة وتذكارات رُسمت عليها علامات وحمامات سلام ومجموعة تقاويم على شكل حصران صغيرة يعود عهدها إلى سبعينيات العراق ، وعشرات الرسائل التي كانت طوابعها تحمل صوراً لمصطفى جواد والرصافي وأحمد حسن البكر وكمال جنبلاط ومعرض بغداد الدولي ومؤتمر عدم الانحياز ويوم الشباب ويوم الشهيد ويوم المرأة وطيور من الشمال وأسماك من الجنوب والسابع من نيسان والرابع عشر من رمضان والثلاثين من حزيران وتواريخ لا أول لها ولا آخر أفشت ثلاثين سنة من العراق كانت بالمصادفة هي عمري .

قلت لها وأنا لا أشعر بالحرج من السؤال ، كونها كانت قد أخبرتني من قبل عن غائب سوف يعود :

- هل هي رسائله؟

قالت :

- كلا ، إنها محية(*) .

ثم صرختْ فجأة ، وهي تلتقط شيئاً من بين تلك الكومة التي سمّتها محية :

- انظري .

بين يديها كانت قطعة نحاس طولها نحو الإصبع ملفوف حولها خيط سميك يلتف حولها كما البكرة . سحبتْ الطرف السائب من الخيط ، وقالت :

- هذا .

- ما هذا؟

- شاقول البنّاء .

(*) ليلة منتصف شعبان يحييها بعض العراقيين بالعبادة وصوم يومها ، والبعض الآخر ببعض طقوس الفرح .

– ماذا؟

– شاقول البنّاء . . إنه خيط يُنزله البنّاء على الجدار الذي يقوم ببنائه ليعرف مدى استقامته .

ثم نهضت من مكانها وتركت النار المشتعلة بلا طعام جديد ، وقالت لي بحزم :

– انتظريني .

دخلت إلى البيت مثل طفل فرحان . . وبعد قليل برز شعرها الأشعث من فوق سياج السطح ، ونادت عليّ وهي تضحك :

– نادية . . نادية . .

قلت :

– اسمي فادية وليس نادية .

فكررتْ النداء دونما حاجة فعلية لذلك .

– فادية . . فادية . . اقتربي مني ، انظري ، سأرمي الشاقول من الأعلى وأرى إن كان الجدار مستقيماً .

لم أكن قد رأيت هذه الآلة من قبل ، ولما سألتها : «ماذا تفعلين؟» ، قالت :

– إذا بُنيَ البيت على الشاقول ، فهو بناء عدل ولن ينهار .

– وماذا وجدتِ أنتِ؟

ظلت صامتة وهي تنظر إلى أسفل بعمق حتى خِفتُ عليها من أن تسقط . كانت تقف في برجها المتألق حائرة . . تنظر إلى أسفل والخيط يراوغ في مكانه ولا يستقر على حال ، ثم قالت وهي تستعيد وقفتها الأولى التي رأيتها عليها أول مرة قبل أيام مع ذات الأنفة والكبرياء :

– ما أدري . . يمكن عدل .

ثم أخذ الهواء الساخن يتموج فوق النار وحولها ، فلمعت في ذهني

تلك اللحظة ، ولا أدري لماذا؟ ، المرأة العجوز الجوالة ، وكنا ندعوها بأم المكانيس ، والتي ارتبطت صورتها بطفولتي عندما كان جرس الباب يُقرع أكثر مما يصمت ، ولم نكن نسأله من الطارق؟ أو نفتح الباب على وجل ، بل نخرج لنأخذ ما نحتاجه من أم الحليب أو حدّاد السكاكين أو أبو العتّيق أو قارئ مقاييس الكهرباء والماء أو بائع الخردوات . . أُم المكانيس كانت صديقة جدتي . . وجدتي كانت توصيها بأن تجلب لها لفائف التبغ من سوق السكائر في الشورجة . فإذا جاءت والتأم شملهما فإنهما تفترشان أرض الحديقة قرب جذور النخلة النافرة فوق الأرض ، وتفتح أم المكانيس كونية الجنفاص وتُخرِج منها بضاعتها النظيفة ، فتأخذ جدتي بتقليبها على مهل وتختار منها واحدة أو اثنتين حتى إن لم تكن للبيت حاجة إليهما . وبالرغم من حكاية جدتي مع المكانيس لم تكن حكاية شغف أو حاجة إلا أن حكايتها مع أم المكانيس كانت كذلك ، فقد كانت تراها مثالاً للكبرياء يُحتذى به ، وتريدنا أن نستخلص الدرس البليغ من تلك الناحلة ذات الوجه المليح والتي كانت ، حسب جدتي ، في تجوالها والكونية الضخمة على ظهرها ، محفوظة الكرامة أكثر من الذي يتحجج بالجوع والفاقة فيبيع نفسه وكرامته بأبخس الأثمان .

كرامة تلك المرأة الجوالة أصبحت أكثر وضوحاً عندما مرت السنون تباعاً وجاءت أولى سنوات الحصار ، فأصبحتُ ، بعد أن ماتت جدتي ، أنا التي أخرج إليها عندما تأتي ، فأجلس بينها وبين النخلة العملاقة ذات الجذور الصلبة النافرة فوق الأرض كما الثعابين . لم تنقطع عن زياراتها إلى بيتنا في الغزالية ، بالرغم من أني كنت أقلّب مكانسها في كل مرة ولا أستطيع الشراء ، أو بالكاد أشتري مكنسة واحدة بين زيارة وأخرى . وراح يوم وجاء يوم وانتشر لصوص النهار في الطرقات من أجل سرقة دراجة هوائية متروكة في حديقة بيت ، أو قنينة غاز أو ربما سيارة . . فإذا بي وأنا أجلس يوماً قربها ،

والباب موارية ، نرى رجلا غريبا يدخل وبيده سكينة مطواة شهرها بوجوهنا فور أن أصبح قريباً منا ، فامتلأ قلبي رعباً وكاد يُغمى عليّ من شدة الذعر . لكن العجوز لم تهلع ولم يطرف لها جفن ، بل نهضت بقامتها الممشوقة كعود الخيزران وحملت ثلاث مكانيس في يديها دفعة واحدة وانقضّت بها على الرجل الغريب فخاف هذا وارتج عليه وولّى منها فراراً .

يومئذ ضحكتُ على نفسي وعلى قلة حيلتي . . وضحكتْ أم المكانيس على الحرامي الذي وصفته بالمستجدّ ، وضحكتْ المكناسة في يدها من شدة الزهو والانتصار في معركة الكرامة . كان يوماً من أيام الصيف القائظة كهذا اليوم . . أحسبُه من شهر آب أو أيلول . . تلهث فيه الأشجار وتشخص العيون . . والشمس ترسل شواظها إلى الأرض بلا رحمة ، فيلوذ الناس بعد الضحى إلى برد البيوت ، ويهجرون الحدائق المضيئة بالشمس لحين طلوع النجوم . تلك الحدائق علامة فارقة أخرى من علامات البيوت .

ثمة قمصان رجالية معلقة في حديقة ختام الخلفية . . وكانت تلك القمصان هي آخر العجائب التي لفتت نظري ، قبل أن أتركها لحريق العصور الغابرة وأخرج . هواء الظهيرة قد بدأ يفقد سكونه المعتاد ويتحرك قليلاً في الشمس فيخفف من وطأة أتونها المستعر . وقبل أن أدخل البيت لمحت عمار قادماً نحوي بدون دراجته وهو يركض تقريباً . وما إن رآني حتى لوح لي بالانتظار ، فهرعت إليه لأجد يديه ملطختين بالدماء . . وبالكاد استطعت أن أقول وأنا أراه على هذه الحال :

– هل ضربك أحد؟

قال :

– نعم ، وجدت جريحاً في الشارع الذي خلفكم ، فذهبت لأحمله ، لكن النار فُتحت عليّ ، بالكاد نجوت .

(٨)

بعد أن غسل عمار يديه من دماء الجريح الذي حاول إخلاءه ولم يستطع ، طلبت منه أن يتوارى عن الأنظار لحين عودته إلى الديوانية ، وذّكرته بالجثة التي كنت قد رأيتها مرمية على ناصية الطريق عدة ساعات دون أن يجرؤ على التقدم منها أحد . حدث ذلك قرب باب الصيدلية التي اعتدتُ أنْ أبتاع منه الدواء في الشارع العام ، وقد كانت الجثة لرجل شاب منكفئ على وجهه وقد تكوم فوق ظهره زجاج واجهة الصيدلية التي هشمها الرصاص . لم يجرؤ أحد على التقدم باتجاهه خوفاً من وجود القاتل أو القتلة على مقربة من القتيل ، حتى جاء أبوه بعد ساعات ، فهرع إليه وأخذ الجثة بين أحضانه . ليس ابنه الذي كان بين أحضانه وإنما الجثة . . وهي لم تعد قادرة على أن تكون ابناً لهذا الأب ، أو جسماً لذلك الصيدلي الذي أعرفه ، فمن هي هذه الجثة؟ . . مَن أُمها ومن أبوها؟ وكيف يصبح للجثة المرمية على الرصيف زوج وطفل؟ ، أو كيف يكون لها أهل وأبناء وأصدقاء وهي جثة؟ . مسدس أعمى في يد عمياء حوّل ذلك الصيدلي إلى جثة مرمية على الرصيف ، فلا يعود لها أهل بعد ذلك أبداً .

عندما ذهبت إلى عزائه سمعت بعض النسوة يهنئن أمه على تمكنهم من التقاطه ودفنه وهو بكامل طوله . . ثم هرعن الى القرآن يخفضن صوته عندما اتصلت أخته المهاجرة من أستراليا تبشر أمها بأنها حامل . . فبقيت أقول لنفسي «حامل وميت حامل وميت حامل وميت» . . أدهشني أن

العقل يعمل حتى في شتاته ، ويا له من تطابق عجيب في أنْ يكون أقصى ما تتمنى النسوة أن تدركه هو أنْ يَدفنّ الابن في بطن الأرض كما يرقد الجنين في رحم أمه ، كامل الجسم وليس على شكل أشلاء وقطع مبعثرة! . .

محمد الذي كان يحدّث عمار من خلف سياجنا ويسأله عما حدث ، أجابه عمار ، وهو يلتفت نحوي ، بصوت واطئ :

– الرجل الذي أطلقوا عليه النار كان لا يزال حياً عندما تقدمتُ إليه . وعندما نظر إليّ بتوسل يطلب المساعدة ، اعتقدتُ أن المسلحين قد ضربوه وولّوا ، ولكنهم كانوا على مقربة ، فضربوني عندما تقدمت إليه .

قال محمد ، وكان رأسه لا يزال ظاهراً من خلف السياج :

– خطيبة ، من يدري؟ لعله يعيش . أفضل من ذلك الشاب الذي شمروه حياً من صندوق السيارة ، في رأس الشارع ، ثم أُفرغت عدة طلقات في رأسه ومات على قارعة الطريق . . وظل المسكين مرمياً إلى اليوم التالي . . وحين جاءت الشرطة ترددتْ في التقدم من الجثة خوفاً من أن تكون مفخخة ، ثم أفرغتْ فيها مخازنها من الرصاص قبل رفعها من الأرض .

صاح عمار بانفعال :

– أنا رأيته . . أنا رأيته . . إنه الشاب أبو النظارة السوداء . . أليس كذلك؟

سألتُه :

– هل كانت على عينيّ الميت نظارة سوداء ، أم كان معصوب العينين؟

صاح محمد يسبق عمار إلى الجواب :

– عندما رموه من صندوق السيارة كان مكتوفاً ، وعلى عينيه نظارة سوداء ، ثم قتلوه وتركوه قبل أن تأتي الشرطة لترميه بالرصاص والنظارة

على عينيه . . خطية .

والخطية أضاف إليها عمار كلمة أخيرة وقال :

– لك خطية ، يقولون حتى الكلاب أكلت منه .

ما أحوجه ، إذن ، إلى تلك النظارة السوداء ، لكي تحجب عنه موتاً متخماً تكرر ثلاث مرات من القاتل والكلب والشرطة . . كم مرة يجب أن يموت الإنسان في هذا البلد؟ . . أكلمات ، مثل خطية وحرامات ، كافية لاختصار اللون الأسود المظلم للخطية والحرام ، أم إن هذا هو الوعد المكتوب الذي كانت تصف به العجائز أية مأساة مهولة لا يمكن احتمالها بغير تسليم الأمر إلى الواحد القهار . . فأي وعد مجنون هذا في أن تكون أجمل أخبارنا هي التمكن من الوصول بسلام إلى جثة باردة مرمية على ناصية الطريق ، أو الحفاظ على طولها الفارع عند مواراتها الثرى؟

طلبت من عمار أن يجلس ليرتاح ، وكان شاحب اللون :

– هل رأيت هؤلاء الذين ضربوك؟

قال وهو يكتم صوته بيده لكي لا يذهب بعيداً :

– يبدو أنهم من الجماعة .

ثم مسح شعره بيده المبللة بالماء ، وقال وهو يخفض صوته أكثر من المرة الأولى كمن يُفشي سراً خطيراً :

– أتفهمين قصدي؟ من الجماعة .

لم أفهم قصده ، ولن يحدث هذا أبداً ، في زمن أصبح فيه الفهم عديم النفع وغير ذي بال . . ولم أشعر بالرغبة حتى في الردّ ، بعد أن نظرت إلى رأسه ووجدته مليئاً بالدم :

– أهذا الذي فوق رأسك دم ، يا عمار؟

أصبح التفاوت بين ما رآه على يديه والكلمات على لسانه واضحاً ، فراح ينظر إلى يده التي مسح بها شعره فيرى عليها الدم الغزير ، وفي

الوقت نفسه يرى الدخان الذي رآه يتصاعد من بيت ختام فيتخبط في حيرته وتتداخل الكلمات على لسانه :

– ما هذا الدخان؟ الدم؟

قلت :

– عـمـار ، على رأسك دم . . على رأسك دم ، عـمـار . . هل أنت مجروح؟

أحنى عـمار رأسه أمـامي وكـأنه يقف أمام مرآة ، فنظرت إلى رأسه لأجد جرحاً غائراً يتدفق منه الدم . شهقت وتهت . . وأصبحت كالماء من شدة الارتخاء ، وتخيّلته ضائعاً مفقوداً إلى الأبد ، وسيسقط في أية لحظة إلى حفرة الموت التي تتطاير إليها الأشلاء وتتدحرج الرؤوس . . في الجزرة الوسطية للشارع . . غير منتبه . . كارتونة فارغة . . انفجار . . قرب قدميه . . قناص . . سيطرة وهمية . . منطقة أخرى . . حظر تجوال . . فدية . . رصيف . . مستشفى . . كاتم صوت . . ثم يتحول الوجه إلى صورة من صور الطب العدلي أصبحت الأغلى ثمناً بين كل الصور الملتقطة في الحفلات والمناسبات والإستوديوهات المعتبرة . التمع الدم أمامي بلونه الأحمر الداكن ، وهو يتدفق كالنافورة من رأس فتى الحدائق عمار قبل أن يلفه الظلام فأغيب عن الدنيا .

لما أفقت وسألت عنه ، قالوا إنه في المستشفى وقد أخاطوا جرحه وسيتماثل للشفاء ، وأقسموا على ذلك بأغلظ الإيمان ، فنمت مرة أخرى وحلمت بأن ثمة خياطاً يجلس في العراء تحت يافطة مكتوب عليها (المركز الصحي للهلال الأحمر) ، ولكنه بدلاً من أن يجلس داخل غرفة مجهزة لمركز صحي ، فإنه يجلس في ساحة عامة ويضع أمامه منضدة واطئة يخيط فوقها الرؤوس إلى الأجساد . . فخاط رأس طالب دكتوراه إلى جسده ، ونهض ضاحكاً ليعبر الشارع من جديد ، والتقط رأس ابن التاجر

من الكارتونة التي كان فيها وخاطه إلى جسده ، فنهض إلى الساحة وتأبط كرة القدم ليلعب مع أقرانه من جديد ، وخاط رأس مؤذن الجامع إلى جسده ، فعاد كما كان . . يرتدي دشداشة ناصعة البياض ، ونهض من فوره وصعد إلى مئذنة الجامع ليرفع آذان الظهر ويقيم الصلاة تحت سماوات سبع تردد معه (حي على الصلاة حي على الفلاح) ، وقت إقامة الصلاة .

منذ زمن طويل ، لم أشعر بتلك الراحة العميقة التي شعرت بها في تلك اللحظة ، فتقدمت من الخياط لأهنئه على عمله وأهنئ القتلى على سلامتهم . ولكني حين تقدمت منهم وجدت أشياء مفقودة في وجوههم كالأنف أو الأذن أو العينين . عندئذ أدركت أني أحلم ، وأن الحلم قد تحول إلى كابوس لن ينتهي ما لم أستيقظ وأعود ثانية إلى البيت ، فأفقت وسألت عنه فأقسموا لي بأنه لم يمت . لم أصدق ، وكيف لي أصدق أن أحداً يمكن له أن لا يموت في هذا البلد الذي لم يعد فيه سوى من مات مرة واحدة ومن مات مرتين أو ثلاث مرات؟ . أما من ينتظر فأصبح فراغاً كباقي الفراغات التي يتركها الآخرون عندما يغادرون لمختلف الأسباب . . فراغات في البيوت . . فراغات في الوقت . . فراغات في المسافات . . تسمى مَنْعَ تجوالٍ يُفرض على الناس منعاً للأذى . . منعاً لتصادم أمواج البشر الهائمة على وجوهها . . الجاهزة بأجسامها للأذى ، وعقولها للأذى ، ليحتضن دجلة أجساماً جديدة تنضم إلى رمم قديمة درست وأخرى جديدة صاحبة حظ كبير لم تعد مجهولة الهوية أو المصير ، لأنها علَقَت في شبكة منصوبة في الصويرة جنوبي بغداد ، وظيفتها اصطياد الجثث ومنع الماء من جرفها إلى المجهول . سيلتقطونها كيما تصبح جاهزة للحفظ في ثلاجات الطب العدلي ، ثم تُباع بأثمان محترمة للقلوب المحترقة . . إلى الأهالي البائسين . . سعداء الحظ الذين يستلمون جثة محفوظة كاملة الإهاب غير منقوصة للدفن فتقرّ أعينهم بهذا الوعد المكتوب ، وتنفقس عيون الزمان .

(٩)

. . هي الثامنة صباحاً ، ومهما بدا المشهد بشعاً للمتفرجين وقوفاً أو الهارعين للمساعدة وإخلاء الجرحى ، فإنه ليس كذلك لهذا المنطاد الأبيض الكبير الذي يجثم كدُملّة في بشرة نضرة هي سماء بغداد ، ولا أحد يعرف ماذا يفعل إذا وصلت الدمامل إلى عنان السماء؟ أو هل يحزن أم يضحك على ريم التي تقول إنها أصبحت لا تعرف كيف تنشر ملابسها على السطح بحيث تخفي عوراتها عن المروحيات والمناطيد .

حقاً إن مكان التفجير وما حوله من شظايا ودماء وأشلاء متناثرة لهو موقع تصوير جدير بالفخر زهواً بأكثر الديكورات كابوسية ورعباً في العالم . وحق لها الأخبار أن لا تملّ من النظر إليه ثملة عمياء عما حوله من اختراق الشظايا لبقايا القلوب . فما بالها الانفجارات تتوالى اليوم بشكل غريب ويمضغ بعضها بعضاً بين ساعة للطعام وساعة لهضم الطعام!؟ . . أية مناسبة هي اليوم؟ وفي أي منزل هو القمر؟ وأية نار ستُصب علينا بهذه المناسبة؟ ، بل ما هو اليوم أصلاً في السنة؟ وفي أي عام نحن من أعوام الزمان؟ . كانت المزولة الشمسية مجرد دائرة عليها علامات تبين الساعات فيما بين شروق الشمس وغروبها . . مجرد أقراص شمسية تقوم بحساب بسيط للوقت بالاعتماد على حركة الوقت مقابل الشمس وتقدير الظل المتكون على القرص المدرّج . . أقراص يصنعونها من سعف النخيل وجذوعه ، ويضعون فيها وتداً في المنتصف ، ثم يراقبون كيف يمتد

ويستطيل ظله في الضحى والعصر ، وكيف يتقلص وينكمش في الظهيرة حتى يختفي تماماً عند منتصف الظهر . . فيميزون الأوقات والأزمان بهذه الطريقة دون أخذ الفوارق البسيطة بالاعتبار ، لأنها لم تكن أصلاً بالبال أو الحسبان . . خطوط تدل على اليوم أصلُها الشمس ، وأخرى تدل على الدهر أصلها القمر . . فهل خطر في بال البابلي الأول الذي صنع الساعة الأولى أنه سيجيء يومٌ في الزمان تصبح التواريخ فيه لعنة على الإنسان؟ . .

سمعت أصوات الأمريكان فجأة تتوالى من مكان قريب . . موف . . موف . . موف Move . . Move . . Move . . كو . . كو . . كو . . Go . . Go . . Go ، قلت إذن شارعنا قد أُغلق ، وربما سنتعرض بعد قليل إلى حملة تفتيش ضارية ، فإذا بي أرى ختام ، وكأنها في وادٍ والدنيا المقلوبة رأساً على عقب في وادٍ آخر . . كانت تسير بين الورود بحذاء (سكاربيني) أحمر اللون ، وتضع على عينيها نظارة شمسية سوداء ذكرتني بتلك التي كان الميت ، الذي حدثني عنه عمار ، يضعها على عينيه عندما مات ثلاث مرات . كانت تسير مزهوة مستبدة وكأنها ملكة تمشي بين حفاة . . رأسها مرفوع بكبرياء فوق أرض تعتقدها ، على ما يبدو ، منصّة لا يراها أحد سواها . . ولا تسمع من يصرخ بها ، لأنها لا تراه ولا ترى شيئاً سوى ما تظن أنه منصة .

قال لها الجندي الأمريكي :

– هل تسمعينني؟

ولم تسمع ، لأنها بدت كالمستعد للكلام من فوق المنصة ، فكرر الجندي سؤاله :

– هل تسمعينني؟

هذه المرة كانت قد كَوّمت ، قرب الباب ، أربعة كراسٍ خشبية مع

منضدة واطئة وُضعت فوقها سجادة قديمة بحال جيدة وكومة من الستائر وصوبة علاء الدين وسماور وساعة جدارية من النوع الذي كان موجوداً في كثير من البيوت ، لأن الناس ، كما أخبرتني أمي ، كانوا في السبعينيات يشترونها من السوق الحرة بعد عودتهم من رحلات اصطيافهم السنوية التي كانوا يقضونها خارج العراق . ولكن ختام خالفت اليوم قوانين الليالي الهادئة لرمي الأغراض خارج البيت ، تحت جنح الظلام ، فرمت هذه الدفعة الجديدة مرة واحدة وفي رابعة النهار .

قال لها الجندي الأمريكي للمرة الثالثة :

- هل تسمعينني؟

قالت وهي تنظر إليه للمرة الأولى :

- عذراً . . لا أريد أن أسمعكم .

نظر لها بنفاد صبر ، ثم قال لها وهو يمعن النظر في السجادة ويحركها حذراً بماسورة الرشاشة :

- ما هذا؟

تقدم المترجم لينقل لها كلام الأمريكي ، ولكنها استوقفته ، ثم خلعت نظارتها الشمسية ، وقالت بالإنكليزية :

- سجادة . ألم تر سجادة في حياتك؟

قال :

- وماذا يوجد في داخلها؟

اقترب منها أكثر وقال :

- ماذا يوجد في داخلها؟

قالت وهي لا تبتسم :

- جثة .

صاح الجندي على الفور :

- فريز .

تبادل الجنود الواقفون كلاماً هامساً ، وتوجهت إليها رشاشات الجنود الآخرين من دورية التفتيش ، وأمر قائدهم بفتح السجادة رغم أن علامات تصديقها غير بادية على وجهه . قلب الجنود السجادة بقوة ، فانفتحت عن غبار كثيف تصاعد عجاجه في الجو واختلط مع هواء الظهيرة الحار ، مما جعل الجميع يسعلون . صفقت ختام بيديها لهذا المشهد ، فقال القائد ببرود :

- ما خطبك؟ لا توجد جثة .

قالت :

- الجثة هو الاسم السري لقصة حياتي .

نظر إليها قائد المجموعة بانزعاج ، وطلب منها الدخول لتفتيش بيتها بالكامل ، وسألها :

- هل يوجد أحد غيرك داخل البيت؟

قالت :

- توجد جثث أخرى . . ولكن يجب أن تسمعوني أولاً .

قال القائد بغضب :

- ولكن ماذا تفعلين هنا؟

قالت بحزم وغضب اشد :

- هذا بيتي . أنت الذي ماذا تفعل هنا؟

ثم ضحكتْ ضحكة شامتة بدت لي على النقيض من تلك الضحكة البريئة التي كنت قد استخرجت منها وجه البراءة قبل يومين . بدا لي أن ما يمكن استخراجه من تلك الضحكة الجريئة ليس وجه الطفولة أو الصبا أو الشباب ، إنما وجه مطلق مكتمل بوضوحه ، ولا يمكن العثور فيه إلا على ملامح وتجاويف ومعان بالغة القوة .

قال القائد قبل أن يدخل :

- هل يوجد سلاح داخل البيت؟

ضحكتْ :

- يبدو أنك لم تسمعني جيداً؟

وصفّقتْ ، كمن يطلب الصمت وجلْبَ الانتباه ، فقال القائد :

- لماذا ترمين أغراض البيت إلى الشارع؟

قالت بحزم :

- أريد أن أصبغ البيت . بيتي .

قال :

- وهل من يصبغ البيت يرمي أغراضه إلى الشارع؟

قالت بحزم ، وهي تستدير دون أن تدع له مجالاً أكثر للتدخل :

- نعم . . بيتي وأنا حرة فيه .

كرر قائد المجموعة سؤاله مرة أخرى :

- هل يوجد سلاح داخل البيت؟

قالت :

- لقد سألت هذا السؤال من قبل ، فلماذا تعيده؟

قال ، وهو يبتسم كمن لا يأخذ كلامها مأخذ الجد ، ومع ذلك هو يتخذ مأخذ الحذر في الدخول :

- حسناً . . لأنك لم تردّي . . لندخل أولاً .

فدخل الجميع وهم يتباطؤون في مشيهم بشكل غريب ، وقد سارت ختام أمامهم وهي تتحرك بشكل مرح ، كمن يجسد دور الفائز بشيء ثمين بعد نزال صعب . ومرة أخرى رأيت قمصاناً رجالية جافة معلقة على حبل الغسيل ، وكانت هيأتها تتطابق مع النحو الذي رأيتها عليه أول مرة ، ويبدو أنها متروكة هناك من زمن طويل .

(١٠)

كيف أخرج من هذا الظلام وأنا ابنةُ واحدةٍ من أولات الألباب في التضرع للأولياء الصالحين بالقرابين وإشعال الشموع؟ . كانت هي وعمتي وجدتي لا يملن من النذور والزيارات . . واحدة نذرت أن ترقص في الشارع إنْ عاد ابنها سالماً من الجبهة ، والأخرى نذرت أنْ تعبر جسر الأئمة حافية القدمين إلى الكاظم لو عاد ولدها سالماً من الأسر . . فما ذهبت عمتي حافية إلا إلى قبرها الذي دُفنت فيه بعد سماعها خبر ابنها بأيام . . وما خرجت أمي الى الشارع راقصة إلاّ مع خروج جنازة ابنها من البيت . . خرجن من بيوتهن الدافئة الجميلة إلى الظلام . . الظلام الذي يلفنا جميعاً ويحيطنا بأشباح ترانا ولا نراها . . ونقول لها إننا نخاف صمتها في الظلام ، فلتتحدث إلينا بكلام مسموع . . لتفتح لنا شباك ضوء يمسح عنا هذا العمى . ولكنها ، من شدة الزعل ، صامتة وتنوس خلف الأبواب ، بل ترفض حتى الإنصات إلى النذور . . كنت أتنقل أيام منع التجوال الثلاثة من ظلام إلى آخر ، ومن أريكة إلى سرير . . ولا أجد شيئاً أتسلّى به سوى الذكريات ، لعلي كنت أريد اقتناص هذه الفرصة المؤقتة من حياتي في صمت عميق لا بد منه للبحث عن كنز مفقود تحت هذه الأنقاض . . صمتٌ لم يسبق لي أن عشته في بغداد ، وكيف كان لي أن أعيشه من قبل؟ . . إذ لا يمكن للبنت أن تعيش وحيدةَ المنزل إلا في مثل هذه الظروف التي تَباعدَ فيها الأهل وتشتّت ذوو القربى فأصبحتْ وحدتي

بانتظار العائدين ممكنة . وحدتي في الجبل الأخضر بليبيا كانت ممكنة أيضاً في غرفة مقتطعة من سكن داخلي لطالبات ومدرّسات الجامعة . ولكن تلك الوحدة كانت بعيدة جداً عن الأرض وقريبة جداً من السماء . . حيث كنت أرى أحياناً ، عندما أفتح نافذة الغرفة ، نتفاً من الغيوم الواطئة تتفكك وتتسلل ، على شكل ضباب كثيف ، إلى الغرفة .

حين جاء تحسين الصباغ وقرع الباب الخارجية بكف حاملاً بالأخرى فرشاته داخل كيس مطوي بعناية كما المحفظة المحكمة ، خرجتُ إليه ، فور أن رأيته من نافذة المطبخ ، وأنا أشعر بسرور كبير أنْ يكون أول وجه أراه ، بعد انتهاء حظر التجوال ، هو وجهه الباسم الذي يفصح عن نفس نقية ويمتاز بالطيبة والسماحة ولطافة لا تخطئها العين في وجه بابلي من وجوه أهل الحلة . دعوته للجلوس في الحديقة ودخلت إلى المطبخ لأعد الشاي لكلينا ، فقال ضاحكاً يستوقفني :

– أين؟ . . أين؟ . . لن أتأخر . . كنت ماراً من هنا ، فجئت للاطمئنان عليك . الدنيا توشك على الغروب . ساعة من الآن وتصبح الشوارع الأربعة مقفرة من المارة .

قلت :

– لا تتحجج . . بيننا وبينكم خمس دقائق فقط .

قال ضاحكاً :

– ويا لها من خمس دقائق تقضينها بين الشوارع الأربعة والغزالية . . إنها أخطر خمس دقائق في العالم على الإطلاق .

قلت :

– لن أتأخر . . خمس دقائق فقط . . فأنا أريد أن أحدثك في موضوع مهم .

زجاجة الشاي ما إنْ فتحتها حتى طافت في رأسي على الفور

صباحات الجُمبد والمنثور ونقل شتلات الورد من السنادين إلى زوايا الحديقة . منذ أن أفقت من غيبوبتي وأنا أسأل بعض فتية الحي عما حل بعمار ، فيجيبون بأنه بخير وقد ذهب إلى أهله في الديوانية ، بعد أن خرج من أشهر مستشفيات الحرب في العالم على الإطلاق ، مستشفى اليرموك ، والتي شاع اسمها على مدى ثلاثة أعوام في كل أخبار الفضائيات حتى أصبح القِبلة التي يُيمم إليها العراقيون وجوههم ، مهما كانت مناصبهم أو مصائبهم ، ومللهم أو طوائفهم ، بحثاً عن مصائر الجرحى والمصابين . . . وما من مرة مررت فيها بتلك المستشفى وبأي اتجاه من الاتجاهات ، إلا ورأيت سيارات البيكب تشق الصفوف بسرعة الطائرات ، وهي تحمل في أحواضها الخلفية أجساد الجرحى أو جثث القتلى ، مثل لشش الذبائح ، بينما تشق رشاشات الشرطة عنان السماء بإطلاقاتها النارية كي تُفتح الطرق أمامها . . وأمام أحواض الجثث التي جابت الطرقات وملأت العيون حتى عافت نفوس الناس أكل اللحوم .

نقلت إبريق الشاي من الطباخ إلى المنضدة فقُرع الباب مرة أخرى بكف شخص لم أر وجهه ، فلما خرجت إليه وجدت طفلاً يحمل لي صحناً من حلوى الرز أعطاني إياه دون أن يخبرني ممَّ هو وما هي المناسبة . . ودون أن أسأله ، بادر تحسين الصباغ بالقول :

– غداً زكريا . . أول أحد من شعبان .

قلت له :

– والله نسيت .

– نحن أبناء الرز العنبر ، في عاشور نطبخ منه الحلوى الصفراء ، وفي زكريا والمولد النبوي نطبخ منه الحلوى البيضاء ، ولكن . .

ثم توقف عن الكلام ومد رجليه إلى أمام ليبحث في جيبه عن شيء ما ، وعاد ليقول :

– ولكن أين الجميع؟ . . عندما دخلت إلى الزقاق بدا خالياً بشكل موحش . . حتى المتجر الذي أردت أن أبتاع منه علبة سكائر كان مقفلاً .

قلت له :

– لا أدري . . الحركة معدومة في حيّنا هذه الأيام ، ولكن لو رأيت الضجة التي قامت قرب بيت ختام يوم أمس ، لامتلأت عجباً ، فقد داهم الأمريكان بيتها . . لعلهم ظنوها من الجماعة؟

قال :

– أية جماعة؟

ضحكت وقلت :

– بكيفك . . الكل جماعات . . ولا أحد يسأل أو يريد أن يسأل .

وبينما أضع الشاي وطبق الحلوى بيننا ، رحت أحكي له قصة ختام من أولها إلى آخرها ، ورويت له كيف بدأتْ برمي قفص الكناري الفارغ أولاً ، ثم رمت بعده أحد الكراسي ، وبعده أحرقتْ أكواماً من الصور والرسائل والتذكارات ، وبعده رمت المنضدة والستائر والسجادة والساعة وباقي الكراسي وصوبة علاء الدين .

ارتشف شايه على عجل ، ثم نهض واقفاً وقال :

– أهذه عاقلة أم مجنونة؟

قلت :

– أتعرف؟ إني أعتقد الآن ، بعد أن رأيت منها ما رأيت ، أنها هي التي فتحت الباب للكناري وأطلقته ، وإلا لماذا تخلصت بعد ذلك من القفص؟

قال وقد أطلّت من عينيه نظرة عطف :

– حرامات . . المسكينة . . يبدو أنها ليست على ما يرام .

فقلت له :

- وهل تعرف ماذا قالت للأمريكان عندما وجدوا الأغراض في الشارع وسألوها لماذا ترمين أغراض البيت؟ قالت لهم إنها تريد طلاء غرفة في البيت .

قال تحسين :

- لا أصدق هذا . . أيرمي أغراضَ بيته إلى الشارع من يريد إعادة طلاء غرفة فيه؟

ثم وضع استكان الشاي الفارغ على الطبق وقال :

- سأذهب إليها وأعرف ما الحكاية . . فأنا كنت سأزورها لأصبغ لها الواجهة على أية حال .

سمعت خطواته على أسفلت الشارع وهو يعبر إلى بيتها ، ثم انتظر قريباً من الباب . . فتخيلته يجيل النظر في الواجهة . . واجهة بيت ختام ابنة الشيخ عبدالله والتي قال عنها إنها تحتاج إلى طلاء جديد ، بعد أن كان قد قام بطلائها من آثار المطر الأسود الذي سقط على بغداد قبل أكثر من عشر سنوات . وهو الذي أخبرني أيضاً ، عندما جاء لطلاء غرفة الجلوس في بيتي بالأزرق الفاتح ، قبل عدة أشهر ، بأن ختام ابنة الشيخ عبدالله قد اشترت هذا البيت من ابن عمها الطبيب الذي كان قد خطبها ، قبل أن يهاجر إلى أمريكا ، وأن هذا الطبيب كان قد طلب منه طلاء غرفة الجلوس باللون الأزرق الفاتح ، وغرفة الضيوف باللون الصحراوي ، فراقت لي تلك الألوان وطلبت من تحسين تكرارها في بيتي .

بعد وقت ليس بالقليل سمعتها تخرج إليه دون أن تدعوه إلى الدخول ، فقال لها إنه قادم من أجل طلاء الواجهة التي يراها تحتاج إلى تجديد . ثم توقف بعد ذلك عن الكلام ، فاستغربت جداً أن تدعه واقفاً خارج البيت ، خصوصاً وقد أخبرني بأن ثمة علاقة تربطه بأبيها وأهلها لسنوات خلت . واستمر الصمت بينهما عدة لحظات ، انغلق الباب بعدها

بقوة ، فنهضت من مكاني في الحديقة ونظرت من الباب المفتوح ، فوجدت ختام واقفة وعلى وجهها بقية ضحكة لا مبالية حاولتُ جاهدة أن أتبين براءتها أو أستخرج منها معنىً محدداً أبني فوقه أو حواليه شيئاً من وجهها القديم ، ولكنها كانت تقف جامدة كدمية أو كمن لا يعرف أين يقف . . وأنا أيضاً لم أكن أعرف . وكان تحسين لاً يزال يقف في بابها مندهشاً ، فقال لي ، قبل أن تستدير عنه وتمضي :

– تقول إنها ليست ختام .

ما إن استدار تحسين مودعاً ليغادر إلى بيته ، حتى بدا من خلفه شاب ملتح يمشي بصحبة امرأة طويلة القوام تضع الوشاح على رأسها ، والاثنان يتقدّمان بسرعة متجهين نحوي ، بينما تحسين ، الذي كان يهم بأن يسير في الاتجاه المعاكس ، ظل ملتفتاً نحوهما ونحوي . سلمتْ المرأة عليّ بكلمات سريعة بينما وقف الشاب ينظر إليّ وهو صامت تماماً ، ثم قالت وهي تتلفت :

– أنا أم سارة وكنّة صاحب هذا البيت . أيمكنني الدخول؟

تحسين ظل ملتفتاً إليّ ، وأومأ إليّ بعلامة إيجاب من رأسه تؤيد ما ذهبتْ إليه المرأة وكأنه قد تعرّف عليها ، أو هو يعرفها من قبل . وفي هذه اللحظة التي أدركتْ فيها المرأة التفاتتي إلى تحسين ، التفتتْ إليه وقالت بسرعة :

– السلام عليكم ، أبو تيسير . . أعذرني ، لم أرك .

وهنا نطق الشاب بصوت حازم :

– السلام عليكم .

فرد تحسين التحية دون أن يتقدم إليهما ، وكأنه أدرك ، بالإحساس الخفي ، أن ثمة قلقاً ورغبة في الحديث عن أمر مستعجل ، وهذا فعلاً ما حدث بعد أن التفتت المرأة إليّ مرة أخرى وقالت :

– أيمكنني الدخول؟

دخل الاثنان بخطوات مسرعة . . وأنا أيضاً أسرعت الخطو معهما ، والأفكار تتضارب في رأسي عما يمكن أن تكون الغاية من هذه الزيارة المتأخرة التي لا يمكن أن تحدث في مثل هذه الظروف حتى بين الأهل ، فكيف الحال والزائر غريب وقت الغروب؟ . تحسرتْ وهي لا تزال واقفة قرب باب المطبخ الذي كان مفتوحاً أصلاً ولم يكن ثمة باب مفتوح غيره للدخول إلى البيت ، ثم قالت وهي تشير إلى الشاب :

- أنا والدة سارة التي كانت معك في ليبيا وهذا- وأشارت إلى الشاب- ابني ياسر . . إنه في طريقه إلى سوريا . .

قاطعها ابنها بعصبية وعلامات الضيق بادية على وجهه :

- هل ستروين قصة حياتي؟

نظرتْ إليه فاقدة الصبر :

- اسكت ابني ، الله يخليك .

فأدار ظهره باتجاه الحديقة ، وكاد أن يخرج ، فأحسست أن الموضوع خطير ، وأني في ورطة ، وأنّ عليّ ، لخاطر سارة ، أن أدخلهما إلى البيت ، ولم أتذكر أنهما من أصحاب البيت ، إلا عندما قالت المرأة التي كان وجهها الأبيض كثير الشبه بوجه سارة :

- البيت ليس بيتنا الآن . . ولكن أيمكننا التحدث في الداخل؟

جعلني هذا أقول بدون تفكير :

- تفضلاً .

الظلمة داخل البيت كانت شديدة بالرغم من أن الليل لم يحن بعد . . وهذه الآونة من وقت الغروب أُضطر معها إلى الاصطبار على الظلام بإشعال شموع قليلة داخل البيت بانتظار أن يبدأ تشغيل المولد الرئيسي للحي في الساعة الثامنة مساءً . دعوتُهما للجلوس ، فجلست قربي وظلَّ هو واقفاً عدة لحظات ، ثم جلس بعد قليل قرب شمعة

مشتعلة . قالت :

– صديقه يعمل مترجماً مع الأمريكان ، فتعاركا بسبب ذلك ، فبلّغ عنه وقال هددني بالقتل فجاؤوا لإلقاء القبض عليه ، ولم يكن . . . .

نهض ابنها واقفاً ، فتحول وجهه من الضوء الى الظلمة ، وقال مباشرة :

– لا حاجة بك لأن تروي ذلك للآخرين . . أنا آسف لما تفعله أمي . . يجب أن نغادر . . لقد أوهمتني بأن بيت جدي فارغ ، وأننا سنبقى فيه يوماً واحداً قبل أن أسافر غداً إلى سوريا .

بقيتُ صامتة لا أعرف بماذا أجيب ، فقد بدا من المستحيل دعوتهما للبقاء ، ومن المستحيل تركهما يخرجان إلى طريق يكاد يكون مقفراً الآن إلا من الأمريكان والحرس . قالت أمه :

– أنا لا أريد أن أعرّضك للخطر ، ولكني لا أعرف مكاناً غير هذا ألوذ به لهذه الليلة . . لقد خرجنا من الموصل بعد صلاة الفجر ، وكنا في طريقنا إلى بغداد ، ثم إلى الشام ، فقد تحاشينا طريق القامشلي خوفاً من أن يتعرف عليه أحد هناك . ولكن الطريق قرب سامراء كان مغلقاً ، فتأخرنا كثيراً هناك ، ودخلنا بغداد قبل المغرب بقليل ، والدنيا مخيفة ، فارتأى السائق أن نتدبر أمرنا هذه الليلة على أن يتصل بنا للمغادرة في وقت آخر .

قلت وأنا أنظر إلى ابنها ولا أكاد أرى وجهه في الظلام :

– هل قلتِ إن عليه إلقاء قبض؟

أجاب نيابة عنها بشيء من العصبية :

– نعم . . ولكن لدي الآن هوية أحوال مدنية مزورة ، ولا أعتقد أن أحداً يبحث عني الآن .

قالت أمه لكي لا تدع لي مجالاً للتفكير :

– أنا أعرف أنكِ بنت وحدانية . . وهذا لا يجوز ، ولكن صدقيني إنها

قضية حياة أو موت . عندما جاءوا يبحثون عنه كالمجانين مد ابني الثاني رأسه من السطح ليرى ماذا يحدث فضربوه وكاد أن يُقتل وهو الآن جريح في المستشفى . . لا ادري ماذا يريدون منه؟ تبدو القضية كبيرة . . سيصعد ليقضي الليل في الطابق العلوي ، وسأبقى أنا هنا في غرفة الجلوس . . لا أعتقد أن أيّاً منا سيستطيع النوم . . أو . . . . قطعت كلامها ، ثم استدركتْ ، أو كيفما تشاءين . . أنا لدي نسخ لمفاتيح الغرفتين المقفلتين في الأعلى . . واحدة فيها غرفة نومنا أنا وأبيه . . وواحدة فيها جميع أثاث المنزل وأغراضه الأخرى .

شعرتُ فجأة بالانزعاج لما بدوت عليه من إنسانة غريبة في بيت يتصرف هؤلاء الغرباء الذين بالكاد أعرفهم وكأن لهم الحق في المبيت فيه لمجرد أنهم من بقية أصحابه . قلت لها بضيق واضح :

– أنا أعرف الآن أنت أم سارة ، ولكن لا أعرف من تكونين بالنسبة لصاحب البيت؟

– أنا زوجة أخ الرجل الذي استأجرتِ منه البيت . . إنه هشام . . أليس كذلك؟

قلت لها :

– نعم .

– إنه عم سارة وياسر ، وقد كان يعيش في هذا البيت بعد وفاة أبيه . .

قاطعها ابنها ، وقال :

– قولي لها إنه بيت جدي وأنهي الأمر يا أمي .

قالت بحياد وكأنها لم تسمعه :

– أنا زوجة أخيه تمام أبي سارة وياسر ، ونحن نعيش في حي المهندسين بالموصل ولكننا في دهوك بشكل مؤقت . . أخوه الثالث متزوج

من كردية ويعيش هناك . . ونحن هناك الآن بانتظار أن تهدأ الأوضاع . . أوضاعنا . . يعني . .

– لماذا لم يهرب من هناك إلى . . الخارج؟

قالت :

– كان ذلك سيكون أصعب ، إن لم أقل مستحيلاً . . وعمه هشام صاحب هذا البيت في سوريا الآن . . وهو الذي أشار على ياسر بالفرار إليه .

قلت لها :

– ولكن ماذا لو فتشوا البيت في أية لحظة؟ ماذا سيحدث لي . . وللبيت؟ قد يفجرونه إذا ما اكتشفوا وجود . . وجود . . أحد مطلوب فيه . أنا آسفة ، ولكنهم قبل أيام فجروا بيتاً في هذا الشارع لوجود هؤلاء ال . . .

اشتعل الضوء في تلك اللحظة ، فالتفت إليّ ابنها بنظرة حادة شعرت بها تخترقني كالسهم دون أن أراها بالفعل ، فأدركت أنه قد حدس ما صمت عن وصفه به وانفعل لذلك . قالت وهي تنهض :

– تعالي معي . . لا تخافي أرجوك ، أنا مثل أمك . . تعالي واصعدي معي .

كان ابنها قد وضع جبهته على كفه وأعاد ظهره كاملاً إلى ظهر الكرسي ، ثم تأفّف بغضب واضح ، وسمعته يتمتم ببضع كلمات بدت غير متفقة مع ما تفعله أمه ، ولكنه ظل جالساً في مكانه لا يتحرك ، بينما أمه تتقدم إلى حافة السلم وتحثني على الصعود . . أخرجتْ من حقيبتها حلقة تضم عدة مفاتيح من جهة وخارطة للعراق ملونة بألوان العلم العراقي من جهة أخرى . نظرتُ إليها تبحث عن المفتاح الصحيح ، وعندما عثرت عليه بلمح البصر كان هو الذي فتح الغرفة العلوية الأقرب إلى السطح . قالت لي فور أن دخلت ، دون أن تترك لي مجالاً لتأمل الغرفة :

– هذه غرفة نوم . . صحيح؟

ألقيت نظرة سريعة على غرفة النوم ، وقلت :

– نعم .

ثم تحركتْ قليلاً وقالت :

– هذه غرفة نومنا . . أنا وأبيه . . منذ تزوجنا لحد الآن . . أقصد لحين بدأت الحرب وتركنا المنزل .

صمتت قليلا ثم قالت :

– هذا هو السرير . . وهذه منضدة الزينة . . وهذا الكنتور . . صحيح؟

كان كلامها يبدو غريباً ، فقلت لها بفتور وأنا أكاد أفقد الصبر :

– نعم ، صحيح .

ثم اتجهتْ إلى مكتبة صغيرة مليئة بالكتب موضوعة داخل حائط بحيث تبدو بابها الزجاجية غير نافرة عن الحائط ، وإنما موجودة بمستوى سطحه . . فتحَتْها وقالت :

– وهذه مكتبة؟

ولم تدعني أكمل كلامي ، إنما قالت بعد ذلك على الفور :

– ولكن خلفها يوجد مخبأ .

ثم دفعت لوح الخشب ، الذي يضم الرفوف ، الى الوراء بقوة ، فاندفع اللوح مع الرفوف بحركة واحدة إلى الخلف لينفتح عن تجويف مظلم لم يكن يتبين شيء مما في داخله . لم تدع لي مجالاً للتعليق أو الاعتراض ، ولكنها قالت فور أن انفتح المخبأ أمامي :

– والد زوجي ، جد ياسر ، كان ضابطا قومياً ناصرياً . . وهنا عاش أهل زوجي طوال الوقت ، ولكن عندما حكم البعثيون العراق سافر إلى مصر وأصبح لاجئاً سياسياً هناك . ومع أن عليه حكماً بالسجن فقد عاد إلى العراق بجواز مزور عن طريق الكويت ، وطلب من ابن عمه المعماري أن

يفتح له هذه الفتحة التي تشبه المخبأ بين الغرفة والسطح ، ثم جرى التمويه عليها بهذه المكتبة ذات الواجهة الزجاجية . وقد كان يختبئ هنا خلال أيام البعثيين إلى أن قبضوا عليه عندما داهموا البيت ، ذات يوم ، وكان يعمل في الحديقة . . قضى في قصر النهاية عدة سنوات لحين صدور عفو عام ، فانتهت مهمة هذا المخبأ وأصبح مخزناً مليئاً بالكتب الشيوعية أيام السبعينيات . أبوه تمام كان شيوعياً ، وقد وضع كتبه هنا في نهاية السبعينيات مخافة التنكيل به واعتقاله بعد ملاحقة الشيوعيين ، ولم يعد إليها أبداً بعد ذلك .

قلت :

– المفروض أن يكون هذا التجويف ظاهراً للعيان من جهة السطح . . وأنا لم ألاحظ ذلك .

قالت :

– إن المعماري اختار هذه الغرفة بالذات لأن التجويف الذي يقع تحت سلم السطح العالي يحاذيها من الخلف . . والآن إذا نظرت من السطح الواطئ إلى تحت السلم المؤدي إلى السطح العالي ستجدينه مرقوماً بحائط من الإسمنت .

ثم دفعت باب المخبأ الذي هو لوح الرفوف وقالت :

– يعني هذا المخبأ هو التجويف الموجود تحت سلم السطح العالي . . ألا تلاحظين سقفه المائل كحافة هرم .

وأصبحتُ فجأة وكأنني داخل مكان لا يخصني ، وأمامي هذا التجويف المظلم الذي كان مخبأً لجده أيام الشباب ، ثم أصبح معتقلاً لكتب أبيه في السبيعينيات ، والآن سيكون ملاذاً للابن في زمان لم يعد له اسم ولا صفة . خوفي تراجع قليلاً وتقدم الفضول الذي كان يتواصل ويتصاعد ، ثم وأنا في قبضة تلك المشاعر والأفكار ، بدأت ضجة بعيدة

تقترب من البيت . . قد لا تكون قريبة جداً ، ولكنّ سمعَنا المرهف الذي اعتاد التقاط أبسط الهمهمات هو الذي دلني عليها ، فقلت بما يشبه الصراخ :

– ما هذا الصوت؟

خرجتُ ثم دخلت الى الغرفة التي بدأت تهتز على وقع الصوت الآتي من الظلام . وهرولت بلا وعي إلى الطابق الأسفل ، ومعي المرأة التي وقفت تنادي على ابنها للصعود . . لم يتحرك الابن ، بل ظل واقفاً حتى صاحت به الأم :

– أصعد .

وما هي إلا ثوانيَ وأصبحتُ أنا في الطابق الأرضي ، لا أدري ماذا تركت خلفي من أخطار ، ولا أستطيع العودة إلى الخلف ، لأن الأبواب أصبحت ترتجّ بعنف ، والمداهمة كانت لا تشبه أية مداهمة أخرى حدثت من قبل ، وإنما تمت بالهجوم على البيت بشكل مختلف . . تلتها أصوات عالية تُردّد : وين . . وين . . موف . . موف . . موف . . كو . . كو . . كو . .

وأصبحتُ فجأة وسط عماليق شداد يحيطون بي ، وأحدهم يتوجه نحوي ويقول :

– نحن نبحث عن إرهابيين يتواجدون في المنطقة . . هل يوجد رجل في البيت؟

قلت وأنا أجد نفسي ، دون أن أقصد ، في حالة دفاع عن (رجل) لا أعرفه :

– لا يوجد في البيت رجل .

– إلى الغرفة . .

قالها رجل ملثّم من الحرس الوطني . . ولما وجدنا أنا والأم واقفتين كالأصنام من شدة الذهول ، قال بلهجة أشد :

- أنتما . . إلى الغرفة . . رجاءً . .

ثم صرخ :

- إلى الغرفة . . لا تضطراني إلى تقييدكما .

فانبرت المرأة تستغيث به :

- أنت عراقي وأنا عراقي . . لا تدع هذا الأمريكي يفرق بيننا .

ازداد علو صوته وازدادت عصبيته :

- نحن نبحث عن مطلوبين من الجماعة . . من الأفضل لكما أن تدخلا الغرفة ولا تعترضا طريقنا . .

ثم قال لها رجل ملثّم آخر بلهجة هادئة :

- اسكتي يا حاجة ، وإلى الغرفة رجاءً .

فقالت بصوت منفعل وهي تقودني إلى الغرفة :

- أبوية مايقدر إلا على أمي .

في الغرفة بدأتُ بقراءة سورة الكرسي ، ومن شدة الارتباك نسيت تكملتها ، وكان الدمع يترقرق في عيوني مثل قطرات ماء وأنا أطلب من المرأة تذكيري بالسورة ، فقالت لي ودموعها تجري مثل السواقي على خديها :

- أنا مسيحية .

لم أكن أعلم أن سارة والدتها مسيحية ولا خطر في بالي ذلك قبل الآن وأنا أراها ترسم على وجهها وكتفيها علامة الصليب . قلت لها :

- ادعي إذن مريم العذراء أن تقف بجانبه ، والمخلّص أن ينقذه ، واطلبي من كل المظلومين أن يخلصونا من هذه الورطة .

وأصبح خوفي على مصير هذا الولد هو خوفي على مصيري . وفي رأسي ترتج فكرة واحدة مزعجة : لماذا قبلتُ أن أفتح الباب لهارب من الحكومة وآوي مسافراً بأوراق مزورة؟ لماذا لم أفزع ولم أخف وأحول بينها

وبين البيت؟ ها هما بعد أن افترسا المكان قد جعلاه مهدداً وعرضوه للخطر؟ . . فمن أين جاءت هذه المصيبة؟ وهل حقا لم يكن لديهما من ملاذ غير هذا البيت وغير هذا الباب؟ . . وبدأت الضجة فوق رؤوسنا تنتقل من السقف إلى السلم ، ودربكت ضوضاء أقدامهم على درجاته هبوطاً . . وكان واضحاً أنهم كثيرون وأنهم أنهوا مهمتهم على عجل وراحوا يتوجهون إلى خارج البيت . ولشدة ما تملكني الجزع ، كنت أنظر إلى وجه أحدهم الذي كان يوجه لي كلمات قبل خروجه ، وكلماته تصل إلى سمعي ، ولكني لا أفهمها من الذهول والقلق من أن يكونوا قد عثروا على الولد في المخبأ . كان يتحدث لي فقط ، ولا يقتادني معه إلى مكان آخر . . إذن لم يعثروا عليه . .لأنهم لو كانوا قد عثروا على المخبأ داخل البيت لكان لهم معي كلام آخر .

(١٢)

ثمة أقدار مختلفة لكل يوم . . وفي الأيام ثمة أيام لا تُحسب مثل الأيام الباقيات ، ولا تفر أبداً إلى غياهب النسيان . . وهذا اليوم كان قدرياً بامتياز ، إذ أشرق الصباح بعد ليلة ظلماء ، بظلٍ غيمة رمادية خفيفة اللون جعلت الاختناق يتبدد قليلاً لتلك العلامة الخريفية الجميلة التي لاحت في السماء بعد صيف لاهب وطويل . ظلُّ تلك الغيمة الرمادية انسفح على الحديقة التي كنت أنظر إليها من نافذة المطبخ وأنا أعد طعام الفطور . قالت المرأة بحذر :

- الموبايل الذي معي قد يكون مراقباً ، وأحتاج إلى إجراء مكالمة هاتفية لكي نغادر اليوم .

التفتُّ من الطباخ إلى حيث كانت تجلس قرب منضدة الطعام في المطبخ ، ولم أعلق على كلامها ، فقالت وهي تنهض لتناولني علبة ثقاب كنت أتلفت بحثاً عنها :

- لا أريد أن أستعمل موبايلك .

- ليس لدي موبايل ، والذي معي الآن ليس لي .

ظلت صامتة واقفة في مكانها ، ثم قالت :

- لا . . لا . . أنا لا أريد استعماله . . ولكني سأعطيك رقماً لوالده . . في حال حدوث أي مكروه اتصلي به .

عاد الضيق يمسك بخناقي ، فقلت وأنا أحاول إخفاءه :

- لا شيء سيحدث . . اطمئني .

كان ابنها ينزل من غرفته بخطوات بطيئة ، فقالت وهي تنظر إليه :

- ربما عليّ الخروج للاتصال بالسائق الذي أقلنا إلى هنا ، ولكني لا أستطيع أن أحرجك بالبقاء وحدك مع ابني .

كان يقطع المسافة من مكانه إلى غرفة الجلوس ، التي كانت تقع بين المطبخ والسلم ، دون أن يتقدم إلينا ويتحدث إلينا وجهاً لوجه :

- كلا ، لن تذهبي إلى أي مكان .

- إنهم يبحثون عنك؟ ويجب علي الذهاب إلى السائق نفسه الذي أقلنا إلى هنا .

- كلا إنهم لا يبحثون عني . . كانت هذه مجرد صدفة .

ثم تقدم نحونا وقال بعصبية :

- أعدك بأن نغادر هذا البيت عصر اليوم أو يوم غد كأقصى حد .

أصبح وضعي محرجاً وأثرت الصمت خوفاً من أن أتعجل في إبداء ضيقي مما فعلاه يوم أمس ويفعلانه الآن . . ربما كنت خائفة أيضاً وغير حاسمة لأمري على شيء محدد . حدّجَتْه أمه بنظرة حادة ثم تقدمت نحوي وقالت :

- نحن آسفون . . سببنا لك إزعاجاً كبيراً .

تناثر غضبي الصامت بينها وبينه ، فتقدم هو الآخر مني وقال :

- أنا آسف . . أرجوك احتملينا فقط لهذا اليوم . . لا أعتقد أن مداهمة الأمس لها علاقة بي . . لقد كانت تمشيطاً للمنطقة على ما يبدو ، ولا أعتقد أنا المقصود بها .

كانت أصابع قدميه تبدو نظيفة من تحت الخف . التقط أنفاسه في شهيق متصل قال بعده :

- من أين تشرق الشمس؟ . . أريد أن أعرف القبلة .

صوتي بدا غاضباً وأنا أستدير وأرمي يدي باتجاه الحديقة :

- ومن قال لك إني لا أعرف القبلة؟ . . القبلة من هنا .

رفع نظره عني بصعوبة وابتسم ابتسامة صغيرة ومتواضعة كأنها تعود لوجه آخر . ولما أدار ظهره وذهب إلى الهول لكي يصلّي كنت أراقبه من مكاني وهو يفرش أمامه السجادة ويطيل الوقوف خاشعاً قبل أن يبدأ الصلاة . أمه كانت قد جلست في الحديقة تنظر إلى قطة تتشمس في مكان منير أفسحَتْه الغيمة التي تحركت قليلاً ، وهي توشوش لها بصوت مسموع :

- تعالي . . تعالي . .

لكن القطة لم تأت ، ولم تهرب أيضاً ، بل ظلت ساكنة في مكانها تغفو وتصحو تحت الشمس الحاضرة . . ثم ترفع رأسها بهدوء أحياناً إلى الأعلى وكأنها تثمل بحلاوة الهواء العليل . خرجتُ أحمل لها قليلاً من الجبنة ، فرأيت ختام واقفة قرب باب بيتها وهي تضحك . رميت الجبنة للقطة ثم توجهت لها بالسؤال :

- هل أنت التي بلّغتِ يوم أمس . .؟

بهتت وقالت :

- لا .

قلت :

- لماذا تضحكين إذن؟ كنتِ واقفة في بابك يوم أمس . . وتنظرين . .

قالت :

- أضحك عليكم! تحسين الصباغ يسألني هل أنا ختام أم لا؟ وأنت تسألين إنْ كنت قد بلّغت عنكم . .

- لماذا قلت له بأنك لست ختام إذن؟

- لأني ضقت بسؤاله . . كمن يوجهه إلى ميت . . كيف يسألني إن

كنت ختام أم لا؟ . . طبعاً أنا ختام . . فكيف لا يعرفني وأنا ختام التي سكنت هنا قبل الجميع؟ . . ثم كيف أبلّغ عن آني وابنها ياسر؟

بدا لي أني قد انفعلت بدون داع وأن يوم أمس ، الذي تتحدث عنه ، بعيدٌ جداً ، بل بدا لي وكأنه يوم لم يحدث من شدة ما كان حدوثه غريباً . وعندما ذكرتْ ختامُ كيف أن تحسين الصباغ سألها يوم أمس إنْ كانت ختام أم لا ، فإن كلامها أزاح تلك الإضافات والشوائب الغريبة عن يوم عادي وأعاده إلى سياقه المعهود الذي كان عليه من قبل . ويبدو أنني من شدة انزعاجي استعجلت السؤال ، بل تهورت في الاتهام وإطلاق الحكم أصلاً ، ثم وجدت نفسي أعيد ترتيب زمن اليوم الفائت وكأني قد استيقظت تواً ، لأرتب سريراً مبعثراً تشوش مظهره بعد ليلة من النوم فيه .

عاد وجهها هادئاً طفولياً مرة أخرى . . بل جميلاً ويغري على استخراج ذلك الوجه الطيب اللطيف الذي حدثني عنه تحسين . . وهو يغري ، أبعد من ذلك ، إلى استخلاص الجوهر الخالص من خلفه والتوصل إلى طينه الغِرْيَني البارد . في تلك اللحظة التي كنت أفكر فيها بذلك ، اخترقتْ الشارع من بدايته دبابة أمريكية مسرعة أثارت عاصفة من التراب بيننا وشطرتنا نصفين ، كلٌّ هرع في اتجاه . وقبل أن أسأل آني شيئاً يلح علي عن ختام ، أجابت هي من تلقاء نفسها :

– نعم إنها ختام . وأهلها أقدم مَن سكن في هذا الشارع .

عندما أنهى ياسر صلاته قلت له ولأمه ، وانا أغلق الباب بالمفتاح :

- الغداء جاهز .

اعتذرتُ لهما عن تأخره ، وألححت عليهما بالأكل ، ولكن الابن اعتذر فألحت عليه أمه ، وجلسنا نحن الثلاثة حول مائدة صغيرة في غرفة الجلوس وأمامنا أطباق الطعام وأرغفة خبز ساخن مع أكواب من اللبن . . ولم يكن ثمة كلام كثير يُقال . . وانشغلنا بالطعام . ولكني كنت أشعر بوجودنا يتحول إلى أفكار وأنفاس ، ووجوده كرجل غريب يطغى على المكان إلى الدرجة التي كنت أسمع فيها أفكاره تدور حولي كالهباء ، وتتحول أحياناً إلى كلمات مقتضبة أهرب منها بالنظر إلى طعامي :

- نحن آسفون مرة أخرى . . سبّبنا لك مشكلة .

وجوده أصبح مسموعاً ، ويجب أن أخرج من صمتي إلى الكلام :

- لا داعي للأسف . . لا أُنكر أني خائفة . . ولا أدري كيف ستغادران من هنا بسلام؟ . .

وكأنه حدس أمراً أو سمع شيئاً لم نسمعه نحن ، وقف فجأة في مكانه وقال :

- أكره أن أصعد إلى ذلك المكان مرة أخرى . .

قالت الأم :

- ماذا؟ هل جاؤوا مرة أخرى؟

قلت بما يشبه الأمر :

- اصعد .

حدث كل شيء بسرعة ، وتحرك فجأة إلى السلم وأصبح بأقل الخطوات في الطابق العلوي ، وفزعت أمه ، ثم أصبح صوت الطرقات على الباب لا يُطاق . التفتُّ إلى السلم ، ثم إلى الباب ، ولم يكن ثمة وقت للتفكير أو تفضيل أمر على آخر . . الأمريكان أمامي . . أمه خلفي تهبط السلم وهي تقول لي بعينيها أنْ أفتح الباب لهم ، ثم تعود إلى غرفة الجلوس . فتحت باب المطبخ بصعوبة وقلت :

- من؟

قال عسكري أمريكي :

- نريد تفتيش البيت .

قلت له :

- الباب الخارجي مفتوح . . ولكنه ثقيل . . ادفعْه بقوّة .

خطفتُ نظرة إلى الأم فوجدتها ترفع خفيه من الأرض خفيةً وعلى عجل ، ولم يكن حالها أفضل من حالي ، بل بدا أنها ستنهار وتسقط مغشياً عليها في أية لحظة من شدة الهلع .

- هل يوجد سلاح في البيت عدا الرشاشة؟

سؤاله أوقعني في الحيرة ، وبدا لي أن هذا التفتيش إنما هو واحد من تلك التفتيشات التي تحدث في بعض الأحيان ، وليس له علاقة بالتفتيش الشديد الذي جرى ليلة أمس ، فلم أشأ أن أجعل الأمر يبدو إلا جواباً روتينياً لسؤال روتيني :

- لا يوجد سلاح ، لا رشاشة ولا غير رشاشة .

- هل يوجد رجل في البيت؟

- كلا .

- لمن هذه السجادة والمسبحة؟

كان واضحاً أن الأم أصبحت بين الحياة والموت . .

- إنها لي . .

نظر إلى شعري ووجهي ولم يعلق ، ثم اقترب وقال :

- هل يمكنني الصعود إلى الأعلى؟

- نعم .

ولكنه لم يصعد فوراً ، إنما انتظر أن يرافقه عسكري آخر تأخر في الدخول ، ولما جاء رافقه في الصعود ثم صعدتُ خلفهما وأنا أحس أن قدميّ لا تقويان على حملي لصعود السلم ، ولكنني فعلت ذلك بصعوبة . . وقد أرعبني فجأة أن تكون ملابس ياسر موجودة في مكان من الغرفة التي فيها المخبأ . كانت الأم قد أغلقتها بإحكام ، وحين أراد الأمريكي دخولها وجد صعوبة في فتح الباب ، فدخلت خلفه لأجد الغرفة مرتبة ، والمكتبة مقفلة بإحكام . ولكن الوسادة على السرير كانت مرتفعة قليلا عن مكانها ، وغترة بيضاء لا زالت موضوعة على حافة السرير ، ارتجف لها قلبي فرفعتها دون وعي ووضعتها حول عنقي فكانت لا تزال دافئة . مد الأمريكي يده إلى الوسادة ، وقال وهو يرفعها :

- ما هذا؟

رفع من تحت الوسادة قرآناً صغيراً كان موضوعاً تحتها ، وكنتُ ، وهو منشغل بتقليبه ، أحاول خطف نظرة سريعة إلى الغرفة وأقلّب في ذهني أجوبة سريعة لما يمكن أن يسألني عنه بعد قليل مما قد يثير شكوكاً محتملة لديه ، كأن يسألني : من هذه المرأة التي معك؟ وما علاقتها بك؟ وإذا ما عرف مثلاً أنها غريبة عني فما الذي جاء بها لتسكن معي؟ . . أسئلة محتملة لم أستطع التوصل إلى إجابات مناسبة عليها . . وظلت تدور في ذهني إلى أن قال الأمريكي باهتمام مصطنع :

- إنه القرآن ، أليس كذلك؟

قلت له :

- بلى .

أعاده إلى مكانه وقال :

- افتحي لي هذه الأدراج .

ثم استدار قبل أن أفتحها وقال :

- لا داعي لذلك .

وخرج من الغرفة ، ثم اتجه إلى الباب الآخر وحرك أكرته وقال :

- لماذا هذه الغرفة مقفلة؟

- استأجرت البيت مؤثثاً ، وفي هذه الغرفة يوجد أثاث أهل البيت .

- افتحيها رجاءً .

شعرت بأني لو نزلت وتركته وحده لحظة واحدة فإنه سيكتشف أمر هذا الرجل المختبئ خلف الجدار ، ثم كأني فقدت الذاكرة فجأة ونسيت أين يمكن أن أكون قد وضعت المفتاح ، أو كيف هو شكله ، وحجمه ولونه؟ قلت له :

- لا أعتقد أني أتذكر أين وضعت المقتاح . . اكسر الباب لو شئت .

تردد قليلاً ، ثم دار حول المكان بنظرة شاملة ، وقال :

- لا داعي لذلك . . هل هذا هو سطح البيت؟

وخرج إلى هناك دون أن ينتظر جواباً بعد أن التحق به العسكري الآخر ، وبدا وهو يفعل ذلك كأنه يغادر إلى حافة عالم آخر ، ولم أخرج معه . . وكأني أحرس المخبأ من حافته الأخرى . . وكانت أمه قد استطاعت بشق النفس أن تطل برأسها من بئر السلم ، فأشرت إليها بأن تطمئن وتعود إلى الطابق السفلي لعل هذا يساعدها على أن لا تجزع من الخوف . ولكني أنا التي جزعت فجأة وهلعت عندما خطر في بالي فجأة أن للمخبأ الذي

بابه داخل الغرفة جسماً خارجها ، تحت السلم الذي يقود من السطح الواطئ إلى السطح العالي . وإذا ما لاحظ الأمريكي الفراغ الذي تحت السلم ، وهو مرقوم بحائط من الإسمنت ، فإنه سيثير شكوكه ، بل سيدله بكل تأكيد على تجويف مريب خلفه . تلك الفكرة المرعبة هي أسوأ ما مر عليّ في حياتي ، لأنها جعلت مصير إنسان معلقاً بها بل مصيري أنا قبله ، فكيف ارتبط المصيران دون أن أعرف أو أقصد؟ . . تلك الفكرة خطفتني وشلتني إلى الدرجة التي شعرت معها بالعجز عن الحركة . حين عاد الضابط وهو يضحك بدا وكأنه يوشك على فتح فمه بالكلام عن الفراغ المرقوم تحت السلم . . ولو كان ، في تلك اللحظة ، قد صوب رشاشته نحوي لربما بدا أهون علي من أن يفتح فمه ليسألني عن ذلك التجويف ، ولكنه لم يقل شيئاً مما كانت مخاوفي توحي به إلي ، بل ابتسم فجأة و قال :

– هذا بيت جميل .

ثم نزل ونزلت خلفه ، وخرج مودّعاً بكلمة شكر مقتضبة ، وهو لا يرى خلفه الوجوه الممتقعة التي وقف على رأسها الطير ، ثم طار الطير والوجوه لا تزال مخطوفة وصامتة . وظللنا عدة دقائق نتلفت حولنا ونحن لا نجرؤ على الكلام ، وكأننا نجلس على مقعد واحد في دولاب الهواء ، تارة يرتفع وأخرى يهبط ، ولا أحد هناك ليوقف دورانه المستمر ، ويجعلنا نهبط بسلام .

وهبط الظلام ونحن لا نكاد نجرؤ على الكلام إلا همساً ، بل إننا كنا نتحاور أحياناً بالإشارات كالخرسان والطرشان ، وإيماءاتنا تنصبّ على عدم الصعود إلى الأعلى وعدم فتح باب المكتبة ، إلى أن سألتْني آني أخيراً بصوت خافت :

– هل يخرج الآن؟

أعادت سؤالها :

- هل يخرج الآن؟

- لا أدري . . ماذا عن الأقمار الصناعية؟

كان يمكن لأي شيء مستحيل أن يُدخل في روعي لحظة الهلع حتى وإن كان اختراق الأقمار الصناعية للحُجُب والغرف المستترة ، ثم تراجعتُ عن تلك الفكرة المستحيلة وقلت لها :

- لا أدري . . دعينا نُحكم إسدال الستائر ، ونتأكد أولاً . . كأني أسمع أحداً يتحدث ويضحك بصوت عال قريبا من النافذة .

- وهل هناك من يضحك بعد . . لقد نسينا الضحك .

ودرت حول البيت عدة مرات ، ثم صعدت إلى السطح ووقفت هناك أتظاهر بنشر الملابس ، وملأت السطح بالملابس والمشابك والرهبة من السطح ومن الليل ومن هذا المخبأ . . ووقفت هناك أنظر إلى ما تحت السلم . . كيف لم ينتبه إليه ذلك الأمريكي؟! هل متعباً كان أم سارحاً أم ضجراً من كثرة التفتيش؟ . . حسناً . . أنا نفسي لم أنتبه عندما كنت أصعد إلى السطح فيما مضى وأنظر إلى السلم المؤدي إلى السطح العالي ، ولم تخطر في بالي فكرة وجود مخبأ تحته . . ولكن ماذا عن المرة القادمة؟ هل يمكن أن لا ينتبهوا أيضاً في تفتيش قادم ويمر الأمر في سلام؟ . . والتفتُّ إلى الشارع مرة أخرى فإذا بختام واقفة في الباب تنظر إلي وتقول :

- افتحي الباب .

فقلت لنفسي «يا إلهي! أهذا وقتها؟» ، ثم هبطتُ من السطح على عجل وقلت للأم :

- اصعدي إلى الأعلى ، سأرى ماذا تريد؟

خرجتُ إلى الحديقة وقلت لختام :

- خير إن شاء الله؟

قالت :

- هل غادر ضيوفك؟ هل مرّ التفتيش بسلام؟

قلت :

- نعم ، غادروا . . هل تعلمين ماذا يحدث في الشارع؟ كأننا في معركة .

قالت وكأنها لم تسمعني :

- هل أستطيع الدخول؟

ثم تدحرجت إلى الحديقة دون أن تنتظر الرد ، وجلست في الأرجوحة ، ثم راحت تقول :

- هناك بيوت في زاوية الشارع يسكنها مسلحون وقد استطاع البعض منهم الفرار قبل أن يفجروها .

بقيتُ صامتة ، لا أعرف ماذا أقول ، عن هذه المصادفة الغريبة التي جمعت بين الفرارين إلى أن صاحت بي صيحة مفاجئة :

- ولكن هل لا زال الخُطّار عندك؟

لم أجبها ، فقالت :

- إن الولد ليس غريباً . . أنا أعرفه .

- أي ولد؟

- الذي جاء مع أمه آني ليلة أمس . إنه ياسر . . وأذكر جيداً يوم ولدَتْه آني في هذا البيت فأهديتُه جناجل الفضة .

- لقد رحلا .

- لا زالا هنا . . لا تدعيهما يذهبان .

لم أعلق ، فقالت تعيد جملةً قالتها قبل قليل :

- ألا تصدقينني؟ الولد اسمه ياسر ، وأذكر جيداً يوم ولدَتْه آني في هذا البيت فأهديته جناجل الفضة . . انظري . . أنا يتداخل الزمان عندي أحياناً . . وأعتقد أن ابن عمي المهاجر سوف يعود وسنتزوج ، وكأن الزمان

قـد توقف . . ولكني أعـود إلى رشـدي بين حين وآخـر ، فـأفـيق من هذا الوهم ، وأدرك أن المهاجر لن يعود . . بل لم يعد له وجود ، ليس لأنه مات ولكن لأنه غاب عن الوجود . . وحتى إن عاد فسيكون زماننا قد انتهى ، وهذا زمان جديد . . زمانكم أنتم . . فلا تدعيه يرحل ، ويضيع كما ضاع المهاجر .

لأول مرة كان كلامها مترابطاً ومعقولاً ، ختمتْه بجملة خارقة تقول :

- تزوجيه .

ضحكت وقلت ، أجاريها في جدها ، هازئة :

- قابل أخطبه!

- نعم اخطبيه . . تزوجيه . . وإن لم تتزوجيه سأحتفظ به أنا عندي .

ضحكتُ أكثر :

- وهل هو طائر لكي تحتفظي به؟

- لا . . إنهـما يعـرفـانني جيـداً . . أقول لك إني أعـرفـهـمـا من زمن طويل . . هاتِه أخبّئهُ عندي إلى أن تهدأ الأمور . . لا تدعيه يهرب ، كما يهرب الجميع . . إنه جميل وسينجب طفلاً جميلاً مثله . . لا تدعيه يهرب . . يا الهي أكاد أجنّ . . لماذا يهرب الجميع؟

كررت جملتها مرة بعد أخرى ، وكأنها تصحح بها خطأً رهيباً حدث من قبل ، وأنها الآن تريد العودة إلى رشدها من أجل هذه المهمة قبل أن تفقد حماستها مرة أخرى ويضيع هذا الابن كما ضاع ابن عمها في الزمن الضائع .

(١٤)

كان متعباً في الصباح ، بعد تلك الليلة التي قضاها في ظلام داخل ظلام . . خرج مساءً متأخراً من المخبأ ونام على سريره مباشرة دون أن يتناول شيئاً سوى صحن من البطاطا المقلية حملته إليه أمه . إلا أني كنت أسمعه ينهض من مكانه إلى النافذة عدة مرات ، وهو على ما يبدو كان ينظر عبرها إلى الشارع ، وذلك ما جعلني أنام نوماً متقطعاً خطف مني الراحة . وقد حلمت به تلك الليلة مرتين ، مرة وهو يقع في بئر مربعة الشكل وينادي عليّ من قعرها لأمدّ له حبلاً فأُخرجه منها ، ومرة أخرى وهو يأتي إليّ في سرير النوم ليجدني مكشوفة الجسم فيغطيني حتى الرأس .

صباحاً تحركتْ أقدامه بحذر باتجاه السلم ، فاستيقظتُ ونهضت لأتأكد من أن باب غرفة النوم مقفلة ، ثم لم أستطع العودة إلى النوم بعد ذلك فغيرت ملابسي وخرجت من الغرفة . مضت الساعات الأولى من اليوم ثقيلة بالهواجس التي حاولت أمه طردها بصور جديدة لسارة وحديث عن آخر أخبارها ، ثم بددت الباقي برائحة الطعام الشهي الذي أصرّت على أن تجهزه هي للغداء بدلاً عني . اكتشفت أنني قد أصبحت لا أريد لهما الخروج اعتباطاً وبدون سلام أكيد ، وأني لا أريد أن أفكر في خطأ وجودهما معي ، ولكن في طريقة آمنة لتصحيح الخطأ ، فوجدت نفسي أسأله :

- ماذا سيحدث إذا اعتقلوك؟

قال ساخراً :

– يضعون في رأسي الكيس الأسود ، ثم يأخذونني إلى المعتقل .

قلت :

– بأي سبب؟

قال :

– لم أفعل شيئاً .

قلت :

– كيف يكون ذلك؟

قال بعصبية مفاجئة ، وهو ينهض من مكانه ويُسقط إلى الأرض سلسلة مفاتيح كانت موجودة على الطبلة :

– يجب أن نغادر بأي طريقة وأنْ لا نعرضك للخطر أكثر . . وإذا ما حدث شيء فقولي لهم إنك كنت تحت التهديد .

ثم التفت إلى أمه وقال :

– لماذا لم تدعيني آتي إلى بغداد بسيارتي؟ . . لماذا وضعت مصيري رهناً للآخرين؟

قلت :

– ليست هذه هي القضية ، ولكن من حقي أن أعرف ماذا فعلتَ لكي أختار ماذا أفعل .

قال وقد هدأ قليلاً :

– هل يمكن أن تختاري تسليمي أو التبليغ عني؟

تدخلت أمه في اللحظة المناسبة وقالت :

– السبب هو ما أخبرتك به . . لقد اتهموه بتهديد مترجم يعمل مع الأمريكان بالقتل .

– أنا لم أهدده . . إنه صديق طفولتي ، وقد خانني . . عدت من

الخارج لأجده مترجماً عند الأمريكان . تعاركت معه وشتمته ، فلفّق لي هذه التهمة . . فجاءوا لإلقاء القبض عليّ ، ولكنني لم أكن في البيت .

أية محنة وجدتُ نفسي فيها؟ وأي اختيار هو الصحيح؟ وأي يوم هو اليوم؟ . . الخميس هو اليوم الذي جاءوا فيه إلى البيت قبل يومين . . وأمس كان الجمعة . . واليوم هو السبت . . إذن غداً هو الأحد . . إذن غداً يبدأ دوامي . . غداً ستمر عليّ ريم بسيارتها لنذهب سوياً إلى الكلية ، فأين أترك هذا المصيبة؟ وماذا سأفعل؟ بل كيف لهذه المصيبة ، من البداية ، أن تدخل إلى بيت أنا فيه؟ أين كان عقلي عندما سمحت لهم بذلك؟ . قلت له وأنا أرفع نظري إليه :

– كراهية المحتل ليست تهمة . . وهذا ما أشعر به هنا في القلب ، ولكن الإحساس شيء والأعمال شيء آخر . . لقد اختلط الحابل بالنابل .

قال بنبرة جافة :

– ما معنى الحابل بالنابل؟

ظننته يمزح ، لأن ابتسامة مرت على وجهه بعد ذلك . ولكنه أجاب جاداً على سؤاله :

– النابل هو من يحمل النبال ، والحابل هو من يحمل الحبال . . فهل من فكاك؟

عادت أمه صامتة من شدة الحيرة . وهو أيضاً أحسسته يجد صعوبة في الكلام من شدة التعب ، فآثرتُ إنهاء الكلام بالطعام ، وإنْ لم يعد للطعام من معنى وسط الترقب والانتظار . ولكي يتلافى ما حدث بالأمس صعد إلى أعلى بدون طعام ، فأخذتْ أمه الغذاء إليه ، ثم عادت بعد قليل وقالت :

– يجب أن أخرج من أجل المشوار الذي أخبرتك عنه . . لا بد أن

أذهب إلى السائق لكي نغادر هذا اليوم أو غداً في أقصى حد . لا نأمن لأحد غيره ، وحركة النساء لا تجلب الانتباه كثيراً ، لهذا أنا التي جئت معه .

بدا من كلامها أنها تحاول أن لا تدع لي مجالاً للاعتراض ، وكأنها لا تدري أن سريان الاعتراض غير وارد أصلاً ، ثم خرجت دون أن أسألها إلى أي مكان بالضبط هي ذاهبة؟ أو أن أسألها أن تتناول غداءها قبل أن تخرج . قبل أن تصل إلى إلباب قالت :

- إنه في الغرفة ، و . . يقول كم أكره هذه الغرفة .

لم أسمعه وهو يهبط السلم ، ولولا ظله على الأرض لما عرفت أنه واقف هناك ، ولكني رأيته من مكاني في المطبخ يقف بجوار المكتبة وينظر إلى الكتب وهو في كامل ملابس الخروج وإن لم أنتبه ماذا كان يرتدي بالضبط . . قلت له بشيء من الضيق :

- لماذا نزلت؟ . . ابقَ في مكانك ، فلعلهم يعودون .

قال لي :

- لن أصعد إلى ذلك المكان مرة أخرى . . يجب أن نغادر اليوم . .

- إلى أين تغادر؟ ، وكيف؟

- لا أعرف . . ولا يجوز إحراجك أكثر من ذلك .

ولم أفصح له عن انزعاجي من الموقف الذي سيضعانني فيه إذا ما وقع ، وهو الغريب عن المنطقة ، في يد أحد حرس نقطة السيطرة الموجودة في رأس الشارع ، فيتبين لهم أنه كان مختبئاً في هذا البيت منذ يومين . أي أذى سيلحق بي؟ وماذا سيقول إخوتي الذين يعتقدون أني لا زلت أسكن بيت الغزالية مع عائلة الحارس؟ لست أدري . نهضت من مكاني إلى الستائر وسحبتها بعصبية ، ثم أحكمت إغلاق الأبواب وجلست في المطبخ دون أن أدري ماذا أقول؟ ، فجاء إلي وقال بعد أن رأى الاحتياطات

التي اتخذتها :

– آسف . . سأعود إلى الغرفة .

توقفت أقدامه ، وكان جوربه ناصع البياض وفيه خط أسود . قلت له ولا يزال الضيق بادياً علي :

– اصعد .

فضحك وقال :

– هل أنت خائفة عليّ؟ . . أم خائفة مني .

كان شكله الجاف والغليظ قد تراجع قليلاً وأصبح يبدو ، بعد أن لبس الملبس الأنيق ، وسيماً بعينين تواقتين للحياة ، وجبهة عريضة يعلوها شعر أسود . . بدا شخصاً آخر أملاه ذلك المظهر الجديد . . وأصبح صعباً علي أن أجلس معه وأمُّه ليست معنا . قال يقطع الصمت ، وقد تراجع عن العودة إلى غرفته :

– هل قلتِ إنك تعملين في الزراعة؟

قلت :

– نعم .

تلفّت باهتمام فيما حوله وقال :

– جميلة نباتات الظل ، إنها تعجبني .

جملته ما إن اكتملت حتى تبعها دويّ انفجار شديد يبدو أنه وقع في مكان قريب ، فصمتَ عدة لحظات . . وقال بعد ذلك «يا فتاح يا رزاق» . . ثم عاد إلى حديث النباتات الظلية :

– انظري إليها كيف تميل برؤوسها جميعاً نحو الشمس .

قلت بجفاء :

– إذا كانت النباتات تعرف أين تكون الشمس وتميل إليها بشكل فطري ، كيف يحدث أن يرتج الإنسان فلا يعرف الضوء من الظلام؟ . .

قال :

- ومن هو الذي لا يعرف الضوء من الظلام؟

قلت له :

- لا أقصدك بالكلام . . تبدو لي أنك إنسان طيب .

يبدو أن كلماتي أزعجته ، فاستاء فجأة وتوجه نحو الباب ، فانقلب ضيقي إلى خوف وقلت له :

- أين تذهب؟

قال :

- سأخرج إلى الحديقة . . أكاد أختنق .

صحتُ بلا وعي :

- أرجوك لا تفعل . . انتظر . . أنا لم أقصد الإساءة ، ولكننا في وضع صعب .

استدار نحوي ولم يخرج ، وأصبح في وجوده قرب الباب قلقاً ولا يهدأ . وكان واضحاً أن الارض تتحرك فيما بيننا ، والهواء الذي يسري بيننا يتكهرب ، فهربت منه إلى الطباخ ووضعت ماءً على النار دون أن أدري ماذا أفعل بهذا الماء؟ قال لي وهو ينظر إلي :

- يوماً بعد يوم يسودُّ وجه العالم ويزداد قبحاً ، وأنا إنسان أريد له الجمال وأريد له العدالة . . فهل هذا ظلام؟

لم أكن أدري بعدُ لماذا وضعت الماء على النار ، أو ماذا سأفعل به؟ فكان عليّ التظاهر بأني أغلي الماء من أجل شيء ما . ثم سألني فجأة وهو يبتعد :

- لماذا تعيشين وحدك؟

قلت له :

- عدت من الجبل الأخضر في ليبيا لأجد الجميع قد تركوا بيوتهم

وفرّوا إلى مصر والأردن وسوريا . . وبيت أهلي يقع في منطقة الغزالية ، وتعرف كيف أصبحت الغزالية؟ ، فقمت باستئجار هذا البيت مؤقتاً لحين يعود من أهلي من يعود ليلتئم شملنا من جديد ونرى ما يستجد من أمر . سارة هي التي دلتني عليه .

قال :

– إنه لمن الحظ الحسن أن نكون قد التقينا هنا في بيت جدي ، وإن كنا قد التقينا من قبل .

التفت إليه وكانت المرة الأولى التي نظرت فيها إلى وجهه جيداً :

– لا أعتقد ذلك . . لم ألتق بسارة إلا في الأردن ، ولم أكن أعرفها قبل ذلك .

– منذ سبع سنوات . . في العبدلي . . كنتُ أرافق سارة الى موقف الباص وأنتِ كنت هناك قبل سفركما إلى ليبيا .

– لا أتذكر أني رأيتك من قبل .

– فعلاً حدث ذلك ، ولن أنسى وجهك مطلقاً .

هذا الولد الذي قالت عنه ختام إنه جميل الخلقة جميل الكلام أيضاً . وأنا في وحدتي وحيرتي لا أريد أن أقع في وهم الكلام الجميل مع مطارد مطلوب سيعتقله الأمريكان أو الحرس الوطني في أية لحظة . . فأين أذهب وأمه قد تأخرت؟ . . وأنا أيضاً قد تأخرت في مكوثي معه . . ويجب أن تنقذني رِم التي قالت إنها ستأتي بعد قليل لتأخذ مني بعض الكتب قبل بدء الدوام يوم غد في الكلية . . ولكنها لم تأتِ والساعة تقترب من الثانية ، وثمة سِحر أحاطني به هذا الرجل في اقترابه مني . . والماء يغلي ويفور . . وأنا أخاف أن أنظر إليه مرة أخرى لئلا يفترسني بسحره ، إلى أن قال :

– هاتفك يرن؟

لم ينقذني من غليان الماء بلا جدوى سوى ذلك الرنين ، وكانت ريم هي المتصلة ، فما أنسبه من وقت ذلك الذي رنّ فيه الموبايل لكي أُطفئ النار وأهرع إليه لأسمع ريم تقول إنها لن تأتي ، لأن الطريق إلى بيتنا ملغوم بالأمريكان بعد حدوث الانفجار الذي كنا قد سمعناه . أصبحت كلمة الأمريكان ترعبني أكثر من قبل ، فقلت لها :

– نعم ، سمعنا تلك الهبدة . . هل هم قريبون من هنا؟

قالت ريم :

– نعم منطقتكم مغلقة من جهة الجسر المؤدي إليكم . . تقولين سمعنا . . . هل معك أحد؟

قلت بصوت خفيض :

– هذه قصة طويلة سأرويها لك في السيارة يوم غد . هذا إذا انفتح الطريق .

– لا دخيلك . . العطلة قتلتني وأريد أن يبدأ الدوام .

وعادت الأم وقالت إنها خافت من الابتعاد كثيراً عن البيت ، لأن الطريق كان خطراً من كثرة العسكريين ، فسألها ابنها هل هم من الشرطة أم الجيش أم الحرس الوطني؟ فقالت إنها لم تعد تفرّق بين الثلاثة ، ثم طلبت من ابنها التحدث معه قليلاً . ومن نبرتها فهمت أنهما لن يغادرا البيت هذا اليوم ، فتركها غاضباً وصعد إلى أعلى بدون كلام ، فالتفتتْ إلي وقالت :

– أصبحتُ لا أعرف كيف أتحدث إليه . . إنه غاضب على الدوام .

(١٥)

ونحن في سيارتها المتربة التي كنا نتوجه بها إلى الكلية بعد انتهاء العطلة ، في صباح كان لنا كالعيد فيما مضى واليوم هو خامل ومغبر وغير بهيج ، قالت ريم إنها تجازف هذا اليوم باستعمال السيارة للتجربة لأن لديها باجاً للمرور من نقطة السيطرة ، ولكنها قد تقرر ترك ذلك إذا ما وجدت الطريق خطراً . رويت لها ما حصل في ثلاثة أيام منذ الخميس وحتى الأحد ، فقالت بانفعال :

– ماذا تقولين؟

قلت بحدّة :

– خفضي صوت الراديو لكي تسمعيني .

قالت :

– دعيه عالياً ، لنستر على أرواحنا .

قلت :

– يجب أن أعود بسرعة . . لأني تركتهما وحدهما في البيت .

قالت بعصبية :

– كيف فعلت ذلك؟ . . كيف سمحت لهما بالدخول؟

قلت :

– هل نسيت أنهم أصحاب البيت ، وأنا مستأجرة فيه ، وهم أيضاً أهل سارة ، وأثاثُهم موجود في غرفة مقفلة طلب الأمريكي فتحها ، ثم تراجع عن ذلك . تخيّلي أنه كان يقف قرب باب غرفة مقفلة لا أدري ماذا

يوجد فيها؟ وفي الغرفة الأخرى التي خرج منها للتو يوجد مخبأ سري فيه رجل مطلوب .

خفضتْ صوت الراديو :

– ما هذه المصائب التي في هذا البيت؟ يجب أن تخرجي منه فوراً . . تعالي عندي . . ألا تقولين إنهم أصحاب البيت؟ إذن دعيهم يتدبرون أمرهم إلى أن تُحلّ المشكلة .

قلت :

– لا أدري ماذا أفعل؟ . . أشعر بأني لا أستطيع أن أقرر شيئاً .

– يجب أن تقرري قبل أن تروحي ، معهم ، بين الرِّجلين!

– الليلة حاسمة وأخيرة ، وغداً سيرحلون . المخبأ وعرفناه ، ولكن ما حكاية تلك الغرفة المقفلة؟

الآن فقط ، وأنا أسترجع الرعب ، تذكرت أين وضعت مفتاحها . . إنه ليس ضائعاً ، بل موجود في درج من أدراج المطبخ وضعتُ فيه قوائم الكهرباء والماء .

عندما عدت إلى البيت ، ذهبت إلى الدرج الذي فيه تلك الأوراق . . فتحته فوجدت مفاتيح الغرفة العلوية فيه . كنت أريد التأكد من وجود مفاتيح أخرى معي غير تلك التي كانت بحوزة آني ، والتي جعلتني أشعر فجأة ، وربما دون أن تقصد ، بأني أسكن بيتاً غير بيتي . عندما أصبحتْ المفاتيح في يدي سَرَتْ في روحي قوة عجيبة لعلها سحر التملك ، ووجدت نفسي أتصرف كمالكة للبيت مرة أخرى . توجهت إلى آني في غرفة الجلوس وقلت بحدة :

– هل أفتح الغرفة الثانية لكما قبل أن ترحلا؟

ثم وجدتُ من الصعب عليّ الاستمرار في التظاهر بالحدة ، فقلت لها بأدب :

– أريد أن أعرف ما موجود فيها بالضبط .

قالت بنبرة اعتذار :

– إنها مفتوحة . . أنا التي فتحتها قبل أن أنزل ، عندما حدثت المداهمة الأولى ، وهي لا زالت مفتوحة .

– ولكنها كانت مقفلة عندما حاول الأمريكي فتحها أمس . هل أقفلتِها من جديد؟

– كلا ، أغلقتها فحسب ، ولكن بابها مشدود جداً ويحتاج إلى القوة .

صعدنا ، أنا وهي ، إلى الطابق العلوي ، ثم انضم إلينا ابنها ياسر بعد أن خرج من غرفته وتوجه إلينا كالسائر في نومه إلى مكان ممغنط يشدّه إليه ، ويعوّل على بلوغه . . وهنا تذكرت أنها غرفته بالأصل ، ولا بد أنه مشتاق إلى رؤيتها . . تُرى لماذا لم يفتحها من قبل؟ . . أمر لم يخطر ببالي سوى تلك اللحظة التي انفتح فيها باب الغرفة بصعوبة كما هو حال أبواب البيت الأخرى ، ليكون أول شيء تقع عيناي عليه هو بيانو أبنوسي اللون مغطى من الأعلى بشرشف وردي فاتح اللون موشّى بحافات مرقشة بتطريز الأتمين الجميل . . ثمة سرير مفرد مغطى هو الآخر بشرشف لم يعد فيه ينام أحد سوى حقائب السفر . . وتحت السرير يوجد عدد آخر من الحقائب الممتلئة تحيط بها كارتونات مملوءة بالتحف وأدوات الطبخ والدمى وصناديق ألعاب وكتب ومجلات ، وكل ما يمكن أن يفيض به البيت من أغراض بلت أو غدر بها الزمان .

فجأة قالت الأم :

– كم كان جميلاً!

قلت :

– نعم؟

قالت وهي تومئ بيدها إلى إحدى زوايا الغرفة :

– حوض الأسماك هذا . . كانت فيه أسماك ملونة . . سبحان الخالق العظيم . . والماء الصافي يتدفق من بين تلك الصخور الصناعية التي كانت مغطاة بطحالب وأشنات طبيعية . .

حوض الأسماك الزجاجي ذاك كان ناشفاً فارغاً إلا من تلك الصخور الصناعية التي كانت تشبه رؤوساً ثلاثةً تتصاعد على شكل جبل ، وبالقرب من قاعها اليابس ثمة مضخة صغيرة ودمى صغيرة مختلفة الأشكال . . قالت :

– خذيه واملئيه بالماء من جديد .

قلت :

– يبدو ثقيلاً .

قالت :

– سنتعاون على حمله .

قال وهو ينظر إليه :

– سأصلح أولاً مضخة الماء التي تعمل بالكهرباء . . كانت عاطلة . .

مضت الأم إلى النافذة لتفتحها وتزيح عنها ستائرها . . ليتحرك هواء الغرفة لأول مرة من زمن طويل . . تحرك الشرشف الوردي الذي كان يغطي البيانو ، فخطا ياسر خطوة أخرى نحوه وأزاح الشرشف كاملاً عن البيانو ، ثم رفع الغطاء عن أصابع البيانو فبدا كما لو كان نائماً وفتح الآن عينيه . . نظراته إليه تلألأت ببريق اشتياق واضح لروعة حب أول . . التصق به وهو يبتسم ، ثم حرك أصابعه في الهواء ليذوب عنها التوتر والجليد . . مررها بعد ذلك بمشي رشيق على أصابع آلته الموسيقية ، كمن يحييها ، فأصدرت نغمة جميلة لمعزوفة مألوفة السماع . أصبح قلبي يخفق كالشمعة الذائبة لهذا المشهد الحالم داخل غرفة كانت صامتة ومهجورة قبل قليل . وكدت

أطير من خفة الوجود الذي شعرت به يفارق واقعاً مراً . . وانتابني الشك في أن ما يحدث أمامي هو حلم يقظة أرتاح به من عناء اليومين الماضيين ، ولكن ياسر كان قد جلس إلى البيانو ، وأصبحت أصابعه تتحرك خفيفة لتترك خلفها آثاراً متلاحقة لا تكاد العين أن تلحق بها . كان يقتطف من ذلك العزف وجهاً آخر غير الذي دخل به إلى المنزل ، وغير الذي وقف به على السلم ، وغيرَ أيِّ وجه آخر رأيته عليه في ثلاثة أيام . كان عاشقاً بامتياز ، وتلك هي معشوقته التي طال غيابها عنه ، وهو الآن يملكها ويحبها كما يشاء . . ولم يكن بينه وبينها غير الفراق الطويل . . والآن يعانقها فتنطق تحت إصبعه بالغزل . . غناؤها ما هو إلا نغمة جرس تنطلق من هذا المكان الخفي من الكون لتتناغم مع غناء العصافير وصياح الديَكة وتفتّح الورود . إن هذه النغمة لتنسجم الآن مع كل نغمات الكائنات الحية للماء والهواء والشجر . . مع أشعة الشمس في الصحارى والغابات والحقول . . ومع هذا الكون الذي إن أحببتَه الآن فهذا شيء عظيم ، وإن أحببتَ خالقه فهذا هو الشيء الأعظم .

كان يرفع رأسه في الهواء بين حين وآخر كمن يستضيء بشمس لا نراها ، ثم ينظر فجأة إلى ما بين يديه ، وكأنه يبحث عن شيء ما عزيز وغالٍ بين الأصابع البيضاء العاجية التي كانت تطمس وتعلو تحت رؤوس أصابع اليد اليمنى ، بينما يده اليسرى تطفو كالنحلة في علوّ وهبوط على الجهة الثانية من المنصة . بدت الموسيقى وكأنها موجودة في هذا المكان من الأزل ، وما أصابعه إلا الوسيلة الفانية التي يرتفق بها لجعل ذلك الأزل يخفق من الفاني . . بدت أنها ثابتة والعازف يتغير . . وكم غريب أن تخرج هذه الثمينة والمتعالية من أصابع صغيرة لا قيمة لها! . . ظلت تلك الأصابع تعزف برفق فتبدو في خفتها مثل قشور فاكهة تتلوى وتتدحرج على لوح مديد ، بينما روحه تحتمي خلف إغماض العينين أحياناً ، أو

تقفز من القميص الذي انفتحت بعض أزراره لتلوذ بين رأسه وكتفيه فيبدو كمن يحضن نفسه بنفسه . . . من شدة الخفة والنحول خِلتُ أن أصابعه قد أصابها العشق فأصبحت لا ترى لولا حروف الموسيقا التي تخاطبنا بها بدل الكلام . . إنها نظيفة جداً تلك الأصابع ومقصوصة الأظافر كما يليق بمن يقرب الصلاة خمس مرات باليوم . . أصبح يضحك كمن يضحك ولكنه لا يضحك ، إنما هو يرفع يديه للمرة الأخيرة ، ثم يحط برفق شديد في الختام ، فلم أتمالك نفسي من أن أقول :

– الله .

(١٦)

عندما ذهبتُ إلى دوامي في اليوم التالي ، وكان الاثنين ، كان عليّ أن أتذكر ما حدث بوضوح وأنا أفكر هل ثمة علاقة لما حدث البارحة بالأيام التي يكون فيها القمر جديداً والتغيرات في الضغط الجوي شديدة ، مما قد يؤثر بالتالي في الجسم البشري؟ كنت أفكر ماذا حدث إذن ليلة أمس ليطرأ هذا التغير بشكل مفاجئ وحاد وخارج عن المألوف ، فيملي على ياسر الرغبة في العزف على البيانو وعلينا الرغبة بأن نستمع؟ ريم قالت لي ، وأنا أتحدث عن التأثير المتبادل بين القمر والجسم البشري ، إن اليوم السابق كان يوم الانقلاب الخريفي من السنة حيث يكون طولا النهار والليل متساويين ، وتكون كمية الطاقة التي تحصل عليها الأرض قيمة وسطى تقع بين يوم ٦/٢١ ، وهو يوم الانقلاب الصيفي ، أطول يوم مضيء في السنة ، ويوم ١٢/٢١ ، وهو يوم الانقلاب الشتوي ، أقصر نهار مضيء في السنة . . وقالت إن تلك القيمة الوسطى التي تقع بين الاثنين هي الأمثل لحياة البشر . وهذا التغير في نشاط التأيّن ينعكس إيجاباً على نشاط الجسم البشري .

وجدت نفسي في الصف ، بدلاً من الحديث عن خصائص بعض الأعشاب وفوائدها الطبية ، أحدثهم عن التغيرات المختلفة في الحقلين المغناطيسي والكهربائي للأرض وموجات الكهرباء السالبة التي تؤثر في الجسم وتوجه جزئياته بشكل محدد ، مغيرةً الحالة الوظيفية للجسم . كنت

أريد أن أخبرهم كيف يتساوق كل ما في الكون مع بعضه البعض ويتناغم بشكل جميل ، ثم عدت أحدثهم عن صورة عشبة الآس وخصائص جوهرها الفعال ، التي كان يُفترض أن تكون موضوع الدرس ، فقلت لهم ، وأنا أكتب على السبورة : إن من أسمائها الرويحين ، وتتبع الفصيلة المرسينية Myrtaceae ، وقد قدّس الرومان زهرة الياس ، وهي عند اليونان رمز للنصر وموطنها البحر المتوسط ، وهي شجيرة دائمة الخضرة لها أوراق لامعة خضراء وأزهار بيضاء عطرة ، والثمرة لبية بيضاء مصفرة أو محمرة .

أحد الطلاب ، وكان على ما يبدو لا يزال منشغلاً بالموضوع الأول ، سألني قبل انتهاء الدرس :

– كيف يتساوق كل ما في الكون؟

قلت له وأنا أرسم خلية على السبورة :

– لأن الخلية عالم مصغر للكون . . انظر إليها عندما تبني نفسها كيف تفعل ذلك بأشكال دائرية جميلة ، وعندما تتهدم كيف تتلف وتنكمش ، وكل شيء يبنيه الإنسان ينتهي إلى شكل جميل . ولكنه إذا ما تفجر أو تهدّم ، فإنه يترك وراءه أشكالاً قبيحة وغير منتظمة . الخراب قبيح والبناء جميل . . بل إن اللغة نفسها ، وهي صنيعة الإنسان ، صنيع خالق هذا الكون ، تستعمل الجمال للمفردات الجميلة ، والقبح للمفردات القبيحة . . انظروا إلى السبورة ، وكتبت لهم عليها عمودين متوازيين ، في الأول هديل الحمامة وزقزقة العصافير وصهيل الحصان وحفيف الأشجار وتغريد البلابل ، وفي الثاني خفخفة الخنزير ونهيق الحمار وعطعطة القتال ونعيق الغراب وصرير الباب ونباح الكلاب .

سألتهم :

– ماذا تظنون أنه أجمل؟ انظروا كم هو جاف وغليظ العمود الثاني ، وكم هو طري ورقيق العمود الأول . .

وارتفعت الضحكات ترافقها همهمات الإصغاء إلى شيء جديد . فقلت :

- كفاكم . . ولنعد إلى الدرس .

عندما عدت من الكلية إلى البيت متأخرة عن وقت الغداء ، وجدت آني جالسة تستمع إلى مذياعها الصغير ، فسألتها محرجة فور أن دخلت وكأني أعتذر :

- هل تغديتما . . قبل الرحيل؟

- غداً سنرحل ، وليس اليوم . . إني آسفة جداً لهذا التأخير . .

ثم واصلت بصوت محرج :

- اتصلت اليوم من موبايلي ، وقد اضطُررت إلى ذلك ، ولقد قالوا غداً الرحيل وليس اليوم . . لا أدري كيف أعتذر منك؟ كان المفروض أن نبيت ليلة واحدة فقط . وها نحن . .

قلت لها :

- بعد أن فتشوا البيت تلك الليلة ، ولم يعثروا على أحد ، لا أعتقد أن أعينهم لا زالت على هذا البيت .

قالت :

- إن شاء الله ما ظل شيء . . ساعة عن ساعة فرج .

قلت :

- ختام عرضت المساعدة . . هل قلت إنك تعرفينها جيداً ؟

- كيف لا أعرفها؟ . . أعرفها منذ أن كانت شابة . .

- وما هي قصتها؟

خفضتْ من صوت مذياعها أكثر من الأول ، ثم قالت :

- أهلها يسكنون هذا الشارع نفسه . . بيتهم على مبعدة ثلاثة بيوت من هنا ، وتسكنه أختها فقط الآن . . ختام كانت مخطوبة لابن عمها ،

وهذا البيت الذي يقابلنا وتسكنه الآن هو بيت عمها ، وكان المفروض أن يتزوجا فيه ، ولكنه غادر العراق في الثمانينيات ولم يعد ، وعندما طلب منها أن تلحق به رفضت . . كان عمرها حينها في العشرينيات ، وكان السفر ممنوعاً أثناء الحرب مع إيران ، كما تعرفين ، والذي استطاع الخروج ، بطريقة ما ، ما كان قادراً على العودة ، ولذا عندما يئس من التحاقها به تزوج هناك وعرض بيت أهله للبيع ، فتقدمت هي واشترته ، وقالت : «لن يضيع البيت وصاحب البيت» ، ثم صارت تظنه سيعود ، وتتوهم أنها ما زالت صغيرة . . وأشياء أخرى من هذا القبيل .

قلت :

– هذا ما أخبرني به تحسين الصباغ أيضا . هل تعلمين أنه عندما رآها شك في أن تكون هي نفسها ختام؟

قالت :

– صحيح ، هي تبدو مختلفة . . لقد تغيرت كثيراً . . لقد لمحتها يوم أمس وانا أجلس في الحديقة . . لقد تغيرت كثيراً . . يبدو أنها متعَبة .

قلت لها :

– إنها ترمي بأغراض البيت إلى الشارع ، وتحرق الصور والرسائل وأشياء أخرى في الحديقة ، وقبل أيام رمت سجادة إلى الشارع .

قالت :

– هل يئست أخيراً من عودة ابن عمها ، وتريد أن تتخلص من آثاره .

قلت :

– لا . . تقول إنها تريد أن تصبغ البيت .

قالت :

– وهل من يريد أن يصبغ البيت يرمي بأغراضه إلى الشارع؟

قلت :

- هكذا تقول . . وأحياناً تظهر لي من خلف الباب فجأة كما العفريت .

قالت :

- إنها غريبة الأطوار . . ولكنها فائقة الذكاء ، وسفر ابن عمها وخطيبها أثّر فيها وفاقمَ من غرابة أطوارها . . هل تعلمين أنها تفسر الأحلام أيضا .؟ .

- ولكنها الآن تعرض عليّ المساعدة في إيوائكما .

- لا أستغرب ذلك فهي تعرفنا جيداً منذ أن تزوجتُ في هذا البيت .

لكي أحول الموضوع من ختام إلى ياسر ، وجدت نفسي أسألها فجاة السؤال الذي شغلني منذ أن فتحنا تلك الغرفة المليئة بالشراشف البيض والحقائب ، والتي انزاحت يوم أمس عن سر عازف البيانو الذي هو عندي الآن الأكثر غرابة بين أسرار البيت ، والقصة التي لا تشبهها باقي القصص التي رأيتها في هذا البيت ، بدأتْ منذ أن رمت ختام بقفص الكناري خارج بيتها ولم تنته حين الكشف عن مخبأ سري في البيت لاذ به هارب من الاعتقال بأوراق مزورة . قلت لها :

- كيف تحول عازف البيانو إلى مطارَد؟

- أرسلَتْه أكاديمية الفنون في بغداد إلى أمريكا لإكمال دراسة الماجستير في الموسيقى . . وكانوا يتوقعون له مستقبلاً باهراً في العزف ويعدّونه لقيادة الفرقة السيمفونية .

صمتت قليلاً ، ثم قالت :

- ذهب لأمريكا ليدرس البيانو ، وعاد ليهجر الموسيقى . . ويتردد على الجامع . انظري . . أنا مسيحية وأبوه مسلم ، ونحن الاثنين من أهل الموصل وحمايَ متزوج من كردية ويعيش معها في دهوك . . لا أدري كيف انتهينا إلى أن يصبح الدين بيننا مشكلة؟ . . إنه يتردد على الجامع . . هذا كل ما

في الأمـر . . ولكنه ليس قـاتلاً . . ألم أقل لك إن الدين أصـبح عندنا مشكلة ، بل شُبهةً تؤدي إلى التهلكة؟ . .

ثم أخذت تبكي ، وهي تقول :

– عاد من أمريكا إلى الجامع .

– وماذا عن العالم الفاسد الظالم؟

كان يقف قرب السلم ، وقد أصبح لونه ممتقعاً من شدة الانفعال . . رمى من يديه مجلة ، كان يقرأها ، إلى الأرض ، ثم قال بشراسة :

– في بلاد الكفر يذهب الناس بحرية إلى جوامعهم ، ونحن هنا لم نعد قادرين على الوصول إليها .

قالت أمه :

– لا أفهم شيئاً مما تقوله ، يا ابني ، سوى أنك قد عرّضت نفسك للخطر .

– كفّي عن هذا ، يا أمي . . كلنا في خطر ، وليس الجامع هو السبب .

– وهل ربحت نفسك بهذه الطريقة؟

– أنا لم أحارب نفسي في يوم من الأيام لكي أخسر أو أربح . .كنت على سجيتي دائما . . وأنت تعلمين هذا جيدا ، يا أمي .

– عنيد ، ورأسه قوي مثل أبيه وجدّه . . لا فائدة منه! إذا لم يجدوا من يحاربوه حاربوا أنفسهم .

رغم أن اقتطاف الصمت من ذلك الموقف كان صعباً للغاية ، لكنني وجدت نفسي صامتة لا يمكنني التدخل في هذا الأمر الذي اتخذ مساراً لا يمكنني التعليق عليه بغير الصمت . قال :

– أنا لم أعد أحبهم ، يا أمي .

– وهم أيضاً لا يحبونك ، يا أمي ، فلا تدعهم ينالون منك بهذا العناد؟

كان يتكلم ، وهو يقف على السلّم ، عصبي المزاج والنبرة ، وجهه متعال وكلماته الخارجة من قلبه المحترق تقول إنها الحق الواضح وضوح الشمس ، ولكنه تركها دون تتمة وتركنا ، بعد أن كاد ينزل ، وصعد إلى الأعلى مرة أخرى ، فهمستْ الأم :

– عندما كان صغيراً لم يلعب قط بغير الآلات الموسيقية ، والآن يقول الموسيقى حرام .

لم أفهم ما قالته جيداً! . . كيف يقول الموسيقى حرام وهو الذي كان يوم أمس متوحداً مع آلته الموسيقية كعاشق ولهان . وكيف تقول إنه كان في أمريكا ليعود ويكرهها الآن؟؟ ثمة خطأ في هذا الذي يحدث لم أجد له وقتاً للسؤال بين دموعها التي كانت تنزل بغزارة . بعد أن دارت المراوح السقفية فجأة بمقدم تيار الكهرباء الوطنية ، قالت الأم :

– الأقراص التي معي نفدت . . هل يوجد معك شيء للصداع؟

ثم استأذنتني بالتمدد على السرير وهي تقول :

– أشعر بالتعب . . سأنام قليلاً .

قلت لها :

– إني ذاهبة بعد قليل إلى الصيدلية .

وكنت أفكر بأنه لا يوجد طعام كاف في البيت ، ويجب أن أخرج ، على اية حال ، من أجل شراء الطعام .

عندما عدت وأنا أحمل أكياس التبضع في يدي كان ياسر واقفاً قرب النافذة ينظر إلى الخارج ، وكأنه ينتظرني ، وعندما رآني تلقف الأكياس من يدي وقال :

– هذا محرج . . لقد أتعبناك كثيراً .

ثم سحب الكرسي لكي أجلس ، عندما رآني أهم بالجلوس ، وظل ممسكاً بظهر الكرسي إلى أن جلست . كان حليق الوجه خفيف شعر

الرأس ، وقد بان وجهه الجديد أكثر بياضاً من قبل ، وشعر الرأس أفتح مما كان عليه . . إنه يعلن في كل مرة عن قدوم مختلف ، ويكشف عن وجه جديد يبدو غير مألوف ، ولكنه اللحظة يتصرف مثل رجل مهذب ، فكأنه في مظهره الجديد تكملة طبيعية تلحق للتو بمشهد الليلة الفائتة ، عندما جلس أمام آلته الموسيقية ومرر أصابعه على مفاتيحها بخفة عازف محترف . لقد انتفض بما فيه الكفاية ، والآن يعود ليستريح . ولكن بين الاثنين ، الآن وتلك الليلة ، فاصلة أخرى تحدّث فيها وهو يقف على حافة السُلّم عن العالم الفاسد والظالم . . فقال بحذر وكأنه يقرأ أفكاري :

– هل أجلس؟

قلت له :

– طبعاً .

قال :

– أريد أن أعتذر على ما بدر مني هذا اليوم . . وقد أصبحت اعتذاراتي كثيرة .

قلت :

– لماذا تعتذر عن كلام أنت مقتنع به؟ لا شيء خطأ في ذلك .

قال :

– كنت عصبي المزاج ، ولم أكن على ما يرام .

لو عرفتُ أنه سيجلس بهذا القرب لوضعت بعض الزينة على وجهي . . وهذا ما لم أكن أفعله في الأيام الماضية ، إذ كنت أخرج من البيت بأكثر الملابس بساطة وبدون حلٍّ أتجمل بها أو زينة أضعها على وجهي سوى كحل العين ، وهذا شيء قريب مما تفعله ريم مع سيارتها التي تقول هي عنها إنها أصبحت لا تمسح عنها التراب ، لكي لا تبدو نشازاً وسط الخراب الذي يحيط بها . قال مرة أخرى ، وكأنه يقرأ أفكاري حرفاً حرفاً :

- لو كان لديك ثوب جميل ولا يوجد من يراه غيرك فهل ترتدينه؟

قلت :

- لا أظن . .

- أنا جئت لأجد الموسيقى لا مكان لها وسط الأهوال .

توقف وانتبه ، ثم قال :

- أُعيد جملتي بشكل آخر . . جئت لأجد المكان لم يعد صالحاً للموسيقى . .

- لعله في الصفر . . ألا تعلم أن الصفر اختراع عراقي؟ ولكنك كنت غريباً وأنت تسحب لي الكرسي قبل قليل . . وغريباً وأنت تعزف ليلةَ أمس .

قال :

- أنا لم أتنكر للموسيقى ، ولكن المكان كان غير مناسب . . وربما الآن أعود الى سيرتي الأولى لأني الآن في بيت جدي الذي يسع الأشياء كلها مجتمعة . . وفيه وجدت السجادة والمكتبة وآلتي الموسيقية . . ، ولم أجد الدين وحده ، كما هو في الجامع .

قلت :

- وألم تجد ذلك في أمريكا؟

قال :

- بلى . . هناك عزفت البيانو في كل مكان . . تجدينني عازفاً يوم حفلة الكونسرت ومصلّياً يوم الجمعة . . ولم أجد تعارضاً في ذلك ، ولكني عندما عدت إلى الموصل كان أمامي طريق واحد هو الدين ، وكان عليّ أن أؤجل الطريق الآخر ، هذا كل ما في الأمر .

أخذتُ نفساً عميقاً وسألته :

- ماذا كنت تعزف ليلة أمس؟

قال :

- كونشرتو لرحمانينوف .

قلت :

- كان عزفاً جميلاً .

- هل أعجبك؟

- نعم أعجبني . . يداك خفيفتان كالقش .

ضحك وقال :

- لمن تستمعين؟

قلت :

- في الحقيقة ، لا أعرف كثيراً من الأسماء ، ولكن هل هو تشايكوفسكي صاحب كسارة البندق وبحيرة البجع؟

فابتسم برقة ونظر في عيني وقال :

- نعم . . وصاحب الجمال النائم .

حاولت أن أقتطف من ابتسامته الرقيقة وجهاً يصلح للجمع أو الطرح لأصل إلى جوهره النقي ، فوجدت تلك الابتسامة متفردة بعفويتها وخالية من الصفات المستعارة أو المصطنعة ، وأن هذا الرجل المحيّر الذي يبدو كل يوم في وجه جديد يكشف عن تطابق غريب وصادق بين كل الوجوه .

قلت له :

- أريد أن أسألك شيئاً يحيرني . . جدك قومي وأبوك شيوعي وأنت الآن هل أقول إسلامياً . . كيف حدث ذلك؟

تقدم بظهره إلى أمام وهو ينظر إليّ ، فانتبهت إلى أنه يرتدي قميصاً أنيقاً بخطوط رفيعة ملونة . قال :

- وما الغريب في ذلك؟ ألا يجوز لعازف البيانو أن يصلي ويذهب إلى الجامع؟ ، أم إننا لا نتغير طوال الوقت؟ ، أم إن جدي ووالدي لا يذهبان

إلى الجامع؟ كل واحد منهما ترك أثراً في نفسي ، وكل ما هو جميل لا يتعارض مع الدين . . أليس مصطفى إسماعيل هو عبقري الموسيقى عندما يرتل القرآن الكريم؟ . . إن الكائنات لتصمت عندما يقرأ؟ لأن الموسيقى تنقل مشاعرَ وانفعالات بطريقة تعجز عنها اللغة .

- ولكن طريقك مختلف؟

- على مهلك . . لست درويشاً ولا داعية . . أنا وجدت طريق المسجد في الغرب . . وهناك لا يمتنع الناس عن عباداتهم مهما كانت ، مسيحيةً أو بوذيةً أو يهوديةً أو إسلامية . . والصلاة في المسجد هناك أكثر أماناً من هنا . . والمسجد أجمل وأكثر انفتاحاً على الناس . . تستطيعين القول إنك تجدين هناك إسلاماً أفضل من هنا . . هكذا بدأت حكايتي مع الدين .

- لماذا عدت إذن؟

- كان أستاذي أمريكياً ، وكنت أحبه جداً . ولكن بعد الحرب كان يقدم حفلاتنا بتقدير خاص ويهديها إلى أطفال العراق ، فكنت أكره نفسي أن أعزف وبلدي يحترق . . هل تعتقدين أن هذه طريقة مثلى لاحترام البشر؟ . . أن نقتلهم ثم نعزف من أجلهم؟

قلت له بتحدٍّ :

- هل عثرت الآن على طريق أفضل؟

- هل كنت ستجدينني أمامك لولا هذا الطريق؟ . .

- الطريق الذي يقول الموسيقى حرام؟

- أنا لم أقل ذلك أبداً . . أمي تبالغ . . إنها تريدني أن أعود إلى أمريكا .

- وهل أنت عائد اليها؟

- أنا الآن بين المخبأ والمعتقل ، وهناك مثل إنكليزي يقول : إذا صعب عليك الاختيار بين طريقين فعليك الاتجاه إلى طريق ثالث . . وأنا ذاهب

من هنا .

- وهل انتهت حكايتك هنا نهاية سوداء؟

- لا ، ولكنْ ثمة انتظار آخر إلى أن يتغير بعض الناس ، فيأخذ كل إنسان فرصته العادلة في الحياة حتى وإن اختلفنا معه .

- تتحدث عن العدل وقد وصفت عمل المترجم بالخيانة .

- هذا أمر مختلف . . أرجوك ، إنه مختلف . . ولا تدعي الأسود يتشابه مع الأبيض . . أهذا هو الصفر الذي تقصدينه؟ . . أن يتساوى الأبيض مع الأسود ، والصحيح مع الخطأ؟

رن الجرس ثلاث مرات ، فقلت :

- إنها ختام .

فقال بصوت غاضب وهو يمضي إلى غرفة الجلوس :

- دعيها تراني . . لن أتحرك من مكاني لخاطر الله . . أنا في بيتي . .أليس هذا بيتي؟

قالت ختام فور أن دخلت المطبخ :

- الدنيا بدأت تبرد بالليل . . عندك شوية نفط؟ أريد أشعل الصوبة .

ثم خرجت دون أن تنتبه إليه ، فقال وهو يضحك :

- يبدو أني قد تحولت إلى شبح .

(١٧)

طرقتْ ختام الباب مرة أخرى في صباح اليوم التالي ، وكان شعرها المشوش يبرز من فوق عينيها الكبيرتين من فوق الباب ، وعيناها الكبيرتان كعيني المها تحومان في الحديقة ظناً منها أنْ لا أحد يراها . قلت لها وكنت أنتظر ريم لتأخذني إلى الدوام :

- ادخلي . . الباب مفتوح .

دخلتْ وهي تمشي بسرعة هذه المرة ، وعندما رأتني واقفة قرب باب الهول المؤدي إلى خارج البيت . قالت :

- أين هي؟

قلت :

- من؟

قالت :

- أم ياسر . . أريد أن أراها . . لا زالت هنا .

- أهلاً ختام .

وجاءت آني من حيث لا أعلم ، واحتضنتْ الاثنتان بعضهما البعض طويلاً ، وسار الكلام بطريقين متشابكين من كثرة السؤال والجواب عن الحال والأحوال . لكن ختام أسكتتها فجأة وقد ضاقت ، على ما يبدو ، بالأسئلة وقالت بشكل حازم :

- الولد . . أين هو؟ . . أريد أن أراه . . هل ابنك على ما يرام؟

قالت آني :

- نعم .

- فاستدركت ختام :

- لا يهم . . إني أريد المساعدة . . تعالي عندي . . هل أنا غريبة عنك؟

قالت :

- طبعاً لست غريبة ، ولكننا نريد الرحيل اليوم .

- هذا اليوم ؟؟؟ . . الثلاثاء .

رددت ختام (هذا اليوم) مرتين ، وهي تجعل صوتها يبدو ضاجاً في النهاية ، وكأنها تريد التأكيد على أمر هي ، في الوقت نفسه ، تضيق به .

أخفت آني ضحكتها بالكاد ، ثم قالت وهي تبتسم :

- نعم . . هذا اليوم الثلاثاء ، وإن كنتِ غير متأكدة بعد . . (نظرتْ إلي نظرة ذات معنى ، ثم قالت لها) تستطيعين مساعدتنا بشيء آخر .

قالت ختام وهي تغمض عينيها الكبيرتين لتأكيد ما ستقوله :

- أي شيء . . أي شيء .

قالت لها :

- نستعمل هاتفك للاتصال بأبيه . . لعله أكثر أماناً الآن من غيره . أريد الاطمئنان على ابني الثاني .

صمتت قليلاً ثم قالت وكأنها تحدّث نفسها :

- الأرضي أم الموبايل؟

لم أكن أعلم أن لختام موبايلاً تستعمله ، لأن هاتفها الأرضي كان يعمل بشكل جيد خلافا لباقي هواتف المحلة . . وتلك علامة أخرى من علاماتها الفارقة . ذهبت آني معها وتركت الأبواب مفتوحة خلفها ، ولم أنهض لإغلاقها ، وتركتُها لتيار طيب من الهواء كان يتسرب منها وقت

الضحى ، إذ تأخرت ريم في المجيء بينما ياسر كان جالساً بين السنادين والمضخة العاطلة في حضنه يوصل أسلاكها بعضاً ببعض . نظرتُ إليه وأنا أفكر بأنه يبدو من ملبسه الأنيق محباً للحياة ، وليس أفضل من الملابس لتحويل النفس إلى صورة ، ولكنها تخدع أحياناً حتى في لحظة الصدق ، ويبقى الوجه صادقاً حتى في لحظة الشك . رفع رأسه إليّ فجاة لكي يؤكد أنه يخصني بما سيقوله :

– ما أجمله من مكان بين النباتات . . لماذا نشعر معها بالراحة؟

قلت وقد أصبح وجهه أمامي :

– لأن الحديقة مسالمة . . هي المكان الوحيد الذي لا نشعر فيه بالخطر ، ولأنها لا يمكن أن تتهددك أو تتربص بك .

قال :

– نعم . . النباتات ليس لها حيلة .

قلت :

– من قال لك ذلك؟ النباتات تتفاهم فيما بينها ، وتحكمها علاقات اجتماعية معقدة مثل الإيثار تجاه بعضها البعض ، فباستطاعة النباتات معرفة ما إذا كانت الغرسة التي بقربها تُمتُّ إلى الفصيلة نفسها ، عندئذ تعاملها بكثير من الإيثار وتسمح لها بمشاركتها التربة . أما إذا تبين لها أنها من فصيلة غير فصيلتها وأن لا صلة قرابة للغرسة بها ، فإنها تتنافس عندئذ معها بشكل شرس جداً وتحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من المواد الغذائية والمعدنية قبل أن يصل إليها بعض الجيران .

ضحك وقال :

– هل يوجد في النباتات سُنّة وشيعة أيضاً؟

ضحكتُ وقلت :

– كلا ، هذا من صنع البشر ، ولكن أتعلم أن بعض النباتات تقوم

بإرسال نداء استغاثة من الأوراق إلى الجذور لدى تعرضها للهجوم من بكتريا ضارة ، لتستحثها على إفراز مادة حمضية تساعد على جذب البكتريا النافعة الموجودة في التربة ، وهي البكتريا العضوية الرقيقة التي تعمل على إفراز مادة فلمية تغطي الجذور بعد وصول نداء الاستغاثة ، وتحميها من البكتريا الضارة .

تعجّب من ذلك ثم قال :

– ما أحوجنا إلى نداء الاستغاثة هذا من الأوراق إلى الجذور .

ثم ترك المضخة وراح ينظر إليّ . . كان يصطاد ، كرجل كهف ، حمامة أليفة وهو الآن في اللحظات الأخيرة من الإمساك بها ، وعليه الاقتراب منها بحذر لكي لا يدعها تهرب أو تطير . وانتابني شعور غريب بأن ما يحدث الآن قد حدث من قبل ، وأني قد رأيت وجهه من قبل ، كما كان قد قال لي .

جاءت ريم مرة أخرى في الوقت المناسب وكأنها ، دون أن تقصد ، كانت تحول بيني وبينه ، لأنه كان ينظر إليّ ويبتسم ، ويوشك أن يحسم الأمر .

(١٨)

بيننا وبين نفق الشرطة كان الطريق مسوّراً بحواجز عالية ، كأنها تعود لجبهة أو خط تماس مع عدو . . وقرب محطة وقود العامرية كانت ثمة مجندة أمريكية تقف مع مجموعة من الجنود قرب سيارة همر ، وهي توزع كراسات على المارة ، فتذكرت فوراً أن ياسر سأل يوم أمس عن الصحف اليومية وحدثني عن صحيفة معينة دون أن يطلب مني شراءها له . قلت لريم :

- هل تعتقدين أننا سنجد بائعاً للصحف في أحد التقاطعات؟

قالت :

- ربما .

- ولكن ماذا توزع هذه المجندة السوداء؟

قالت :

- ربما تعليمات بحسن السير والسلوك . . لا تعرفين ، بعد الحرب مباشرة ، كيف بدأت تبث إذاعات غريبة أشكال ألوان . . وكان بعض المذيعين عماة القلوب يستفتون الناس حول هدم نصب الشهيد وآخرون ينصحوننا بالتعاون مع قوات التحالف ، وتسليم الأسلحة إلى الأمريكان من أجل حرقها أو ردمها .

قلت :

- أهي تلك الإذاعة التي كانت تبث من خيمة في حديقة الأمة؟ سمعت بها .

– لا . . تلك إذاعـة أخـرى . لكن الإذاعـات التي بدأت تبث أثناء الحرب كانت أمريكية ، ومذيعوها يلفظون القاف كافاً . . وقالوا إن التاكة الكهربائية ستعود بعد عشرة أيام .

قلت وأنا أضحك :

– أحقاً قالوا إن التاكة الكهربائية ستعود بعد عشرة أيام؟

قالت ريم :

– سـمـعت هذا بأذني التي سيأكلها الدود . . والمصيبة أننا صدقنا وانتظرنا . . وانتظرنا . . وانتظرنا . .خـ . . خـ . . خـ . . خـ . . .

وراحت تتظاهر بالنوم وتشخر من الملل حتى صحتُ بها :

– هذا بائع للصحف . . توقفي .

لوّح لنا البائع بصحيفة في يده واقترب من نافذة السيارة ، فنظرت إلى قدميه وصرخت بريم بعد أن توقفت :

– الكارتونة . . الكارتونة . . لا تتوقفي .

لكن ريم كانت قد توقفت ، ودوى انفجار بعيد تخيلته قد حدث . دار رأسي وارتبكت ، ومد بائع الصحف يده ، فأخذت ريم الصحيفة منه ، ثم التفتتْ إلي وقالت :

– ما بك؟

عدت من تلك الفكرة السوداء إلى ريم وقلت لها :

– تخيلت أن الكارتونة ستنفجر عندما اقتربنا منها . .

– تحتاجين مزيداً من الوقت لتتعودي .

– ولكن ليس هذه هي الصحيفة التي أردتها! .

قالت :

– هل نذهب إلى مكتبة خالد؟

قلت :

-مكتبة خالد فُجرت قبل بضعة أيام ، وأُقفلت . . ألا تعرفين محال شارع الربيع كلها مقفلة والشارع مقفر ومهجور؟

بانتظار أن يتحرك السير قليلاً ، التفتنا إلى يمين النفق حيث كانت تقوم عمارة جديدة كانت ما أجملها عندما رأيتها أول مرة بعد عودتي إلى بغداد . . بدت حديثة حينها ، قياساً إلى ما يحيط بها من خراب ، بواجهتها الأنيقة ولافتات الأسماء المعروضة عليها بخطوط حديثة . والآن هي خرساء وصماء وبلا عيون . قلت لريم :

- هذه هي العمارة التي قال عنها عمّار إنها تفجّرت وأبو الموبايلات صارت بضاعته شذر مذر؟

قالت :

- نعم ، وهي نفسها التي استعملها المسلحون أثناء الحرب ، عندما كانت هيكلاً فارغاً يقع في مكان استراتيجي ، فدارت فيها وحولها رحى معركة طاحنة بينهم وبين الأمريكان . ولكن أين عمار؟ ألم يرجع؟

- كيف يرجع ، والوضع هكذا؟

- هل ننزل إلى الفرن ، أم نرجع إلى البيت؟

- كلا ، إلى البيت ، وعندما نصل البيت ، انتظريني في السيارة حتى أرى ما سيقولونه؟ . . إنها مجرد فكرة .

قالت :

- خفضي صوتك . . يا فكرة؟

فقلت لها بلا خوف :

- على إيصالهما إلى بيت آخر .

الفكرة التي كانت تعرفها الأم التي تأمن التحرك مع النساء ، اعترض عليها الابن وقال بحزم :

- هل جننتم؟ . . لن أُعرّض أي إنسان للخطر بسببي . . سأخرج

ماشياً على قدميّ ، مثلما جئت ماشياً على قدميّ .

صمتُّ أنا تماماً ، وتنفست الصعداء ، بينما حاولت أمه أنْ تثنيه عما قاله ، فقالت :

– ما هذا العناد ، يا ابني؟ كيف تخرج من هنا والسائق قد نكتَ بنا والمنطقة ملغومة بالأمريكان؟

قال وشراسته الأولى تعود إليه :

– قلت لكِ مستحيل . . جهنم الحمراء أهون عليّ من هذا الحل . . ولا تعيدي عليّ هذا الطلب . . لن أصعد إلى سيارة البنت . . أمجانين أنتم؟

ولم تكن ريم أقل حماسة منه للرفض ، مما جعلني أشعر بأنني قد أسقطت حمولة ثقيلة من على كتفيها عندما خرجت وأخبرتها بذلك . يبدو أن موافقتها كانت متعجّلة ، وأنا أيضاً تهورت في الطلب . وانتهى اليوم إلى انتظار آخر . . كان اليوم هو الثلاثاء . . وغداً يوم آخر . .

(١٩)

في رأسي أتكوّن من جديد كل مساء نفساً أخرى جديدة ، بعد أن أُحاسب الأولى على ذنوبها وأخطائها ، ثم أطويها في خلوة الليل فوق آلاف النفوس التي تنام معي كل يوم . . وعندما أستيقط أحياناً ، بدون التجدد إلى النفس الجديدة التي يرتاح لها العقل جازماً بالصحيح من الخاطئ ، يهتف القلب بأنني كاذبة ، لأن الشيء الصحيح سنعرفه في اللحظة نفسها التي نفعل فيها الشيء الصحيح . أقول له : «يا قلب ، صدقني هذه المرة أني قد انتظرت طويلاً وأنا لا أعرف إن كنت قد فعلت الشيء الصحيح» . فيضحك ويقول «إنكِ سألت هذا السؤال مئة مرة من قبل ، وبعض الصحيح نقوم به دون سؤال ، فدعي جانباً الأسئلة التي يجب أن تبقى بلا جواب» . كنت أعرف أن بقائي معهما خطأٌ وليس سؤالاً بلا جواب ، ولكن الأيام كان يجر بعضها بعضاً ، ولا مجال للتفكير بخروجهما مع هذا الحشد الأمريكي المفاجئ الذي تصادف وجوده في المنطقة مع دخولهما إلى البيت .

في الصحيفة اليومية التي اختليت بها بعد العشاء ، حيث يتركانني وحدي شاعرين بالحرج من قدوم ليل آخر وهما معي ، كنت أقرأ موضوعاً عن الألوان يقول : «ماذا يمكن للمرء أن يرى إذا خُلطت جميع ألوان القوس قزح معاً في لون واحد؟ وهل تساعد هذه الألوان في معرفة اللون الحقيقي للكون؟ هذه التساؤلات فتحت الباب أمام العلماء للبحث عن ماهية لون

الكون ، لكن أغلب الظن أن الرؤية لم تتضح بعد حول لونه الحقيقي . ففي وقت سابق أعلن فريق من علماء الفلك أن ناتج خلط جميع ألوان قوس قزح سيكون لوناً مائلاً إلى الخضرة قليلاً مع القليل من الفيروزي الباهت . إلا أن عالماً آخر يعدّ هذه النتيجة ليست مسألة بديهية وإن كانت تساعد على تسليط الضوء لمعرفة المصير النهائي للكون . علماء آخرون اختلفوا في تحديد اللون النهائي للكون ، فقال بعضهم إن اللون قريب جداً إلى اللون الفيروزي الباهت ، وقال آخر إنه أخضر فاتح ، وآخر إنه سكّري ، بينما قال آخر إنه أقرب إلى اللون الأبيض ، يكاد لونه يقارب اللون الأصفر الفاتح» .

وفي موضوع آخر عن المتاهة العراقية رحت أقرأ :

«بعد التاسع من نيسان ، غطت بغداد في سكون عجيب ، ولم يصدر عن الناس ، وهم العراقيون ، أيُّ ردة فعل سريعة غير هذا السكون . . كانت أياماً تشبه ، في سكونها ، أيامَ العُطل والإحصاءات السكانية والجُمَع الشتائية الباردة . . لا أحد يأتي . . ولا شيء يحدث . . ولا حكومة تعمل . . ولا قانون يُخشى منه . . ولا شيء على الإطلاق . . صحيح أن الفرهود كان جارياً على قدم وساق ، والمتحف العراقي كان يُنهب من اللصوص والرعاع ، إلا أن قلوب الملايين من الشرفاء كانت تبكي بصمت وتنزف بصمت . ودعا رجال الدين الناس إلى التروّي والانتظار وعدم اللجوء إلى العنف أو السلاح . وشهدنا ترويا عراقياً غير مسبوق ، بل بالغ العراقيون في التروي والانتظار . وكان هذا الانتظار هو الفراغ الذي كان يجب أن يُملأ بالنظافة والبناء والكهرباء والماء والأمان ورفع الأنقاض وزرع الورود ، فلم يكن هناك في تلك الأيام إرهاب ولا مقاومة ، بل كان هناك رجل أمريكي اسمه (بريمر) يقدمه مذيعو الإعلام العراقي الجديد على أنه حاكم مدني للعراق ، يعيش مع غيره من حاكمي العراق الجدد في مدينة محصنة ومرفهة ونظيفة اسمها المنطقة الخضراء ، بينما الناس يعيشون أسوأ

محنة كهرباء مرت على شعب من الشعوب على وجه الكرة الأرضية . وبينما أسلحة العراق المهانة تُكوَّم في أكداس وتُحرق وتُفجّر كل يوم أمام الكاميرات ، ويقف العسكريون وضباط الجيش العراقي السابق في طوابير ، تحت شمس تموز اللاهبة تمتد من مطار المثنى إلى ساحة الفارس العربي قرب معرض بغداد الدولي لاستلام رواتبهم بشق الأنفس . في تلك الأيام التي تأخر فيها تشكيل مجلس الحكم تأخراً غير طبيعي بسبب التناحر بين أعضائه ، كان الإحباط قد أخذ يدب بين الناس ، والصدمة التي ظنوها عابرة وقابلة للتصحيح تتعمق وتتحول إلى صدمات . وجاء اليوم المشهود الذي ظهر فيه أقطاب المعارضة السابقة على الشعب العراقي ليطرح كل واحد منهم نفسه على أساس عرقي أو طائفي وليعلنوا ، وهُم يضحكون ، يوم سقوط بغداد عيداً وطنياً وعطلةً رسمية . حدث ذلك بينما الدبابات الأمريكية تجوب الشوارع بلا انقطاع ، وطوابير الوقود تمتد وتمتد وتمتد . . ، والسيارات تبيت في محطات الوقود ، والناس بلا كهرباء ينامون داخل البيوت على بلاط الأرض بحثاً عن لسعة برد أثناء الليل» .

طويتُ الصحيفة التي أسماها ياسر ساخراً «صحيفة المساء» ووضعتُها جانبا لأحاول استرجاع تلك الأيام التي لم أعشها هنا ، ولكن صعوبتها لمن عاشها كانت خارج حدود التحمّل . كنت أفكر أيضاً بهذه الأيام التي وجدتُ فيها نفسي في صعوبة البقاء في بيت واحد ، مع آني وابنها بعد أن تقطّعت بهما السبل واستعصتْ عليهما المغادرة إلى مكان آخر . فهل يجوز أن أطلب منهما المغادرة إلى مصير مجهول وخطر محقق وأكيد؟ أم كان المفروض أن أغادر أنا وأترك البيت لأهل البيت ما دام المطلوب يستطيع التخفّي دون أن يشعر به أحد؟ للتو أدرك أنهما وثِقا بي دون سابق معرفة سوى تلك الصداقة البعيدة مع سارة ابنة آني الصغرى ، وأنا أيضاً وثقت بهم وأدخلتهم البيت على هذا الأساس . هذا البيت هو ملاذهم الأمين

الحميم ، ومن وقت لآخر كنت ألوم نفسي على الظرف العصيب الذي وضعت نفسي فيه وأشفق عليهما أيضاً من الظرف العصيب الذي وجدا نفسيهما فيه . لماذا أصبح الخارج فجأة حافة جرف عال قد ينهار في أية لحظة إلى الهاوية؟ . . لماذا هذا التوتر والرعب والفزع في هذا العالم الخارجي المخيف؟ . . احتمالات خروجهما إليه كانت قاتلة ، وقد حاولا أكثر من مرة ، ولم يفلحا ، فلم يعد أمامي من حل غير الخروج .

أخبرتهما بذلك في الصباح ، فظهرت ختام بيننا مثل حورية البحر ترتدي فستاناً طويلاً فيه لمعة خفيفة عند الأكتاف وذيلٌ يضيق ثم يتسع مثل زعنفة السمكة عند الأسفل . كان حضورها طريفاً في لحظة حزينة ، فأصبحتْ فجأة طرفاً فيما نحن فيه ، وبددتْ بعفويتها وغرابة أطوارها كلَّ غيوم القلق التي تكونت فوق رؤوسنا صباح الأربعاء الذي قررت فيه إخبارهما برغبتي بمغادرة البيت . دفعتْ سحابة القلق بعيداً عندما قالت :

– عندي غرفة في الطابق العلوي . . إنها فارغة . تعالا واسكنا فيها .

عَرضُها بدا صادقاً وغير مبال بما يمكن له أن يعرضها من مخاطر . أما عرضها الثاني فقد تعلق في الهواء خفيفاً مثل ريشة تصعد إلى أعلى بدلاً من أن تنزل :

– ولكن عندي فكرة أفضل . . العيد الصغير بعد أيام ، وسنذهب إلى المندى في القادسية من أجل المصبتا والارتماس في ماء دجلة . . إنه عيد الازدهار للصباغة والتطهر بالماء الجاري وعقد الصلح بين المتخاصمين . سأعطي ياسر رستة ابن عمي غزوان البيضاء وسنأخذه معنا إلى النهر بحجة الرشامة ، ولن ينتبه حرس السيطرات لذلك لأنهم يعرفوننا جيداً ، وفي سيارة بيت أختي يمكنه الاختباء بالملابس البيض ، سنأخذه معنا إلى النهر حيث يتصافح الجميع بعد أن يضعوا خواتم الياس قي خناصر أيديهم اليمنى .

صمتنا جميعا كمن حط على رأسه الطير ، وسألها ياسر :

– هل أنت صابئية؟

قالت وهي تنظر الى آني :

– نعم . . ألم تخبرك أمك؟

نظرنا نحن الاثنين إلى آني نبحث في وجهها عن تأكيد ، فوافقت على كلامها ثم قالت :

– هذا أفضل ما سمعته لحد الآن .

ولكي تكتمل غرابة المشهد ، وافق ياسر على كلامها على الفور وقال لها :

– لديكم عيد للصلح وعيدنا أصبح ثلاثة أعياد من شدة الخلاف . هات ملابس ابن عمك البيض .

التفتتْ ختام إليّ وقالت :

– ما أجمل العيد الذي نستعد له منذ ساعات الصباح الأولى بالأدعية والصلوات والتراتيل الدينية لحين تشرق الشمس فنقيم مأدبة إفطار جماعية . وما أجملها ملابس الرستة لإنقاذ الولد . . إنها قميص طويل يصل إلى القدمين ويُربط فوق سروال بزنار يسمى الهميانة ، يتكون من طرفين أحدهما على شكل حلقة تمثل عالم النور ، والآخر على شكل شراشيب متدلية تمثل عالم الظلام ، وتعقد الهيمانة بطريقة خاصة تكون فيها الحلقة التي تمثل النور معقودة فوق الطرف الأيسر الذي يمثل الظلام .

تحاشيت تماماً أن أنظر إلى ياسر ، وكنت أعلم أنه ينظر إلي . . وكنت أشعر بالخجل وأنا أعلم أنه ينظر إلي . . ولكن دون أن أستطيع رفْعَ عيني لأنظر إليه . قلت :

– ألا تنطوي هذه الفكرة على خطورة؟ من الأفضل أن أخرج أنا وتبقيا أنتما في البيت .

قال يؤكد أمراً قاله قبل أن تأتي ختام :

– أنا ذاهب في الأول والأخير . . فابق أنتِ هنا .

رفضتُ وقلت :

– يجب أن تبقيا هنا . . وأنت تعلم السبب . . وأنا التي سأسكن في غرفة ختام .

تدخلت أمه وقالت :

– هذا وضعٌ مؤقت ، أمي . . وأنت تعرف لماذا؟

فنظر إلى الجميع نظرة حاسمة وقال لختام :

– أنا الذي سأخرج من هنا . . متى تذهبون إلى النهر؟

صفارات الشرطة التي ترددت في مكان قريب لم تدع المجال لإتمام الحديث ، فنهض ياسر من مكانه وعلى وجهه تبدو علامات الضيق ، وكأنه غير مبال أو مهتم هذه المرة بل قد ملّ هذه اللعبة التي آن لها أن تنتهي . أما ختام فنظرت إليه وغشاءٌ من الدمع يترقرق في عينيها ، ثم قالت لآني :

– ألا زلت تحتفظين بجناجل الفضة التي أهديتُها له يوم ولادته؟

(٢٠)

نحن التقينا في زمن جنائزي كان كلَ مَن حولنا مذهولاً ومخطوفاً من هول الكوابيس والوقائع ، فألهتنا هوجة الموت عن رؤية بعضنا البعض بوضوح . وثمة أشياء لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة حتى في أوقات الصفاء والراحة ، فكيف الأمر والهواء غبار ودخان ودم مرشوش في كل مكان؟ . ولكن الجوهر الخالص كان موجوداً هنا وهناك ، وها هو يظهر وقت الحاجة عندما تبرعت ختام بنهر دجلة لإنقاذ ابن جارتها القديمة آني الذي قالت إنه جاء إلى الدنيا في اليوم الحلو الذي جاء فيه التلفزيون الملون إلى العراق ، ودخل المدرسة في اليوم المر الذي دخل العراق فيه الحرب مع إيران ، فبدأت ولم تنتهِ إلا بعد أن امتلأت رؤوس التلاميذ بأغاني القتال وصور القذائف والصواريخ . كم بدت تلك الحرب بعيدة عنه . وعندما ذهب أبوه وأعمامه إلى الحرب ورأت آني الأمهات يفقدن أبناءهن في الجبهات ، قالت لختام إنها تغبط نفسها لأن ولدها لا يزال طفلاً في المدرسة .

لم يرفض فكرة الذهاب إلى النهر ، وطلب مني البقاء في البيت وعدم الانتقال إلى تلك الغرفة لحين ترتيب خروجه من البيت إلى نهر دجلة ، ومن هناك إلى الفرار الفرار . ولكني كنت قد حسمت أمري ، وقررت الخروج من البيت سواء بقي فيه أم خرج . كانت غرفةً لا تُقدّر بثمن قياساً بالوقت المناسب الذي جاءت فيه . كانت أيضاً جميلة ومرتبة

وفارغة تقريباً من الأثاث عدا سرير خشبي ومنضدة للزينة وخزانة جعلتني أشعر بأنني أعود ثانية إلى الجبل الأخضر في ليبيا ، وبأنني على سفر مرة أخرى ، ولكن في مهمة لن تطول أكثر من أيام .

قبل سبع سنوات لم أكن أعرفه ولا يعرفني . . كنت في الجبل الأخضر ، وهو في بوسطن . . وقبل سبعة أشهر كنت أنا في بغداد وهو في الموصل . . وقبل سبعة أيام أصبحنا نعيش في بيت واحد دون أن تربطنا صلة قرابة أو دم . . فأي صدفة لعبت دورها لهذا الموعد المقدر؟! أي قدر تربّص بنا وراح يراقبنا من بياته البعيد ليضحك من خياراتنا وتدقيقنا في تلك الخيارات؟ . . من دلني على البيت أولاً؟ . . وجدت أنني بعد أن عدت من ليبيا كان آخر إخوتي قد غادر إلى مصر ولم يبق هناك سوى أبناء أعمام وأخوال يتفرقون هنا وهناك بين الحواجز والجدران ، ولم يعد أحدهم يلتقي بالآخر حتى في الأعياد . صادف دخولي إلى بغداد يوماً من أيام منع التجول في الجُمع ، فأمضيت الليل في المطار أغفو وأصحو على جنطتي التي كنت أحتضنها بين يديّ . وعندما خرجت صباحاً إلى شارع المطار تخيلت نفسي أولد من جديد صبيةً تضحك لاهيةً خلف المقود في هذا الطريق الطويل الذي تعلمت فيه قيادة السيارة ذات يوم ، ولكنني سرعان ما تهت عن تلك الصبية في معالم هذا المكان المخرب المهجور بين الحواجز والجدران . فأين ذلك الزمان؟ وأين تلك الصبيّة؟ وكيف اليوم يبكي هذا الشارع من التشرد والمرض ولا تبكي معه؟ بيت أهلي كان يقع في منطقة الغزالية ويسكنه حارس مع زوجته ، مثل أغلب بيوت الغزالية التي أصبحت ملكاً لزوجات الحراس . . فقلت الأفضل أن أبحث عن بيت يقع في منطقة سكنية آمنة أسكن فيه لحين هدوء الأمور وعودة من يعود من أهلي وإخوتي فنعود إلى بيت الغزالية من جديد .

أتذكر الآن أن بيتين آمنين رأيتهما من أجل السكن . أولهما دلتني

عليه جارتنا في الغزالية التي قالت إنها تعرف بيتاً فارغاً يقع في زقاق قريب من الشوارع الأربعة ، يتوسل أصحابه بمن يسكن فيه بدون مقابل حفظاً له من أذى الآخرين . وكان هو الأقرب إلى الاختيار المؤكد ، وثانيهما هو هذا البيت الذي كان يقع قريباً من ساحة قحطان ، ودخل فجأة إلى احتمالات الاختيار عندما علمتْ صديقتي سارة ، التي هاجرت من ليبيا إلى الدنمارك بعد زواجها ، بأنني أبحث عن سكن فاتصلت بي لكي تدلني على بيت أهلها الفارغ في المنطقة نفسها . ذهبت إليه . . نظرت إليه من الخارج فوجدته أكثر جمالاً من البيت الأول ، ويقع في جوار هادئ جداً . . يبدو كالقاعة الامتحانية من شدة الهدوء ، فامتلأ رأسي بزقزقات العصافير ، ونادت فاختة من الأعالي «كوكوكتي وين اختي» ، فقلت كأنها تناديني ، واخترته على الفور . ولم يدرْ بخلدي أنّ أخاها وأمها سيقتحمان علي ذلك الهدوء ويكشفان أسراراً وخفاياً لا تخطر على البال ، وأنّ آخرَ سبعة أيام قضيتُها فيه سترسم لي موعداً قدرياً كان يتقدم لكي يختارني ما دمت أنا التي اخترت هذا البيت منذ البداية . . فهل عندما نَختار سنُختار ، وستمضي حياتنا بطريقة أخرى منذ اللحظة التي يتم فيها هذا الاختيار؟ . . ولكن هذا لم يحدث معي من قبل ، وكنت دائما أدقق في الاختيار ، فكيف عندما جاء الوقت لأكون في نهار عمري وسيدة مصيري يخطفني القدر بهذا الشكل ، ويملي علي ذلك الاختيار الذي وصل إلى شطره الأخير ، عندما قرر ياسر الفرار عبر النهر وقررتُ أنا الخروج أيضاً إلى غرفة قي بيت ختام . .

واليوم لا أدري لماذا تقودني أقدامي إلى البيت الأول الذي كان المفروض أن أسكن فيه؟ . . لماذا ذهبت إليه وعن ماذا كنت أبحث هناك؟؟ أعن قدر آخر كان يمكن أن يصادفني لو كنت قد سكنته واتخذت مثل هذا القرار؟ . . أمن أجل أن أعرف كم هو خطير هذا القرار؟ . . وكم خطير أن

تعرف أنك أنت صاحبه ومسؤول عنه؟ . توقفت عنده لأجده أصبح مشغولاً بالناس والبيوت من حوله ، مثل كل بيوت العراقيين ، لكل بيت طابقان وحديقة تتقدمها قمرية تتعرش فوقها الجهنميات . . لا شيء الآن مختلف في بيوت العراقيين البسيطة ، سوى أنها أصبحت خلواً من لوحات الأسماء لأنها لم تعد آمنة في زمن تناحر الألقاب . . كنت أنظر إليه وأفكر لو أن شبكة الهاتف مع الدامارك لم تكن موصولة ذلك اليوم لما عرفت عن البيت الثاني ؛ ولأخذت هذا البيت الأول وسكنته والتقيت بصباغ آخر وجارة أخرى وحدائقيّ آخر ليس بينهم بالتأكيد آني وابنها . فهل لأجل ذلك نسهر ونشقى من أجل اتخاذ القرار؟ أم نترك الأقدار تأخذه نيابةً عنا ونترك لها القياد منذ البداية ، لأنك في النهاية لن تعرف إنْ كان صحيحاً أم لم يكن ما دمت لم تجرّب غيره؟ .

كنت كمن يحاول أن يعيد الزمن إلى الوراء ليجرب مساراً آخر ، ومع استحالة ذلك كنت طوال الطريق أجرب ، في ذلك البيت الآخر ، حياةً أخرى لم أعشها ، ولكني أفترض ، عبثاً ، أنني عشتها فيه بعيداً عن البيت الأخير الذي سكنته عاماً واحداً وصبغت جدرانه باللون الأزرق الفاتح ؛ ظناً مني أني سأقيم فيه فترة قد تطول ، لكني تركته لأهله عندما ظهرا فجأة من المجهول يطلبان مني اللوذ به من خطر أكيد . البيت كان الأمان وخارجه كانت الأخطار والرعب من المجهول ، فذهبت أنا إلى الطابق العلوي في بيت آمن آخر هو بيت ختام ، ورفضت أن يغادر بيته الآمن إلى نهر دجلة لأن ذلك كان ينطوي على خطر . كان ذلك اليوم الذي تركت فيه البيت عذباً من غير توقع . . لحق بي ياسر في اللحظات الأخيرة وطلب مني التحدث في غرفة الضيوف ، وهناك اختفى النهار الأبيض خلف ستائر حليبية مشغولة بورود بنية اللون قال :

- أشعر بالتعاسة لما يحدث .

بصعوبة وجدت نفسي أنتزع نفسي من حضوره الطاغي ، إذ بدا رجلاً آخر بلا إضافات ولا أوصاف ، كأنه أول أنسيّ على هذه الأرض . . كأنه قد انخلق للتوّ ليكون رجلاً ولا شيء سوى رجل ، فأقول ناظرةً إلى يدي :

– لم يحدث شيء .

سمعته ، بصوت خافت ، يقول :

– أعتذر عن اليوم الأول وكل الأيام التي فقدتُ فيها التحكّم بأعصابي . . كنت في وضع مرتبك ، وتصرفت في بيتك كما لو كان بيتي . أما الآن فأنا أفضل بكثير .

– كانت أياماً عصيبة ، لم يخطر على بالي أن تحدث .

أحنى رأسه قليلاً ونظر إلى الأرض التي كنت أنظر إليها ، وكأنه يبحث عن شيء بين قدميه ، ثم رفع رأسه باتجاهي وقال :

– حمداً لله أنها حدثت . . ستجدين في النهاية أن هذا البيت هو بيتك .

سمعته ، ولم أعلق فقال لي :

– أليس كذلك؟

تملكني الصمت مرة أخرى . . فتحسر ثم رفع يدي وفتحها وفرش راحتها أمامه ثم وضع فيها ورقة مطوية وقال :

– الليلة الماضية لم أنم . . كتبت لك أشياء كثيرة خطرت في بالي .

ثم ضم يدي على الورقة فأصبحت الورقة داخل يدي ويدي داخل يديه ، ويداه داخل عيوني التي لم أجرؤ على رفعهما إلى عينيه قط .

– لولا أن قص الشعر فألٌ سيء لطلبت منك أن تعطيني خصلة من شعرك .

وأحسست بيده تدفع شعري إلى الخلف ، ثم سمعته يقول وهو ينظر إلى وجهي بحبور :

- انظري إليّ .

وعندما نظرت إليه قال :

- من يدري؟ قد لا نلتقي بعد اليوم . . أريد أن أعرف لون عينيك . . سأدقق النظر فيهما جيداً لأتذكر لونهما الأخضر على الدوام .

تلك الورقة الأولى التي وضعها في يدي وحدثني فيها عن نفسه . . أضافت لها أمه ثلاث أوراق بعثها لي من سجنه . . كان في الأولى يقول أفكاراً ساحرة تخلب القلب المرهف وتوهمه بالانتظار ، وفي الأخيرة كان الغريب الذي يكره سجنه ولا يعرف إن كان سيعود أو لا يعود . .

الورقة الأولى

حكايتي غريبة ومتشعبة . . من عازف بيانو إلى متعبّد ورع ، ومن متعبد ورع إلى عاشق ولهان . . ألم أقل لكِ نحن نتغير على الدوام؟ الآن أتوق إلى قطع البراري كالريح ، واضعاً الصوف على جلدي لا أعرف من أكون أو ماذا سأكون ، متخففاً مما أثقلت نفسي به من أفكار قصمتني وقصمت ظهري ، فأموت وأُدفن في الأرض الدافئة مثل أعظم الزهاد وصوام الدهر ، . . قلتِ لي إذا فرقنا صوت الأذان فيجب أن يوحّدنا صوت المطر الرباني . . وهذا حلم جميل غرقت فيه بعض الوقت . . كلُّكِ أحلامٌ متصلة وأنا غريق الأحلام .

ربما لأني أحبك ، لا أرى أمامي سوى الذي يجب أن نراه بقلوبنا . .
وقبل ذلك كأنني في فراغ . .
ربما لأني أحبك . .
لأن القلب اليافع يحبك .

سأنقلب إليه . .
فهل القلب دليل صادق للأشواق؟
وهل يبقى عامراً بالأشواق إذا مر عليه الزمان .

الورقة الثانية

في السجن . . أنت إما بطل أو ضحية . . وأنا لا أريد أن أكون هذا ولا ذاك . . أريد أن أكون أنا ، فأين أنا؟ . . ربما الآن أتجدد . . بعضي يصل إلى الصفر . . (هل أنتِ التي قلت لي إن الصفر عراقي ؟) ، يبدو أن العراقيين يحبونه جداً . . وجدت نفسي أريد العودة إلى ما كنت عليه في بوسطن ، ولكني لا أستطيع . . أنا لا أعرف أين أنا . . يقولون إنه سجن بروكر قرب المطار ، سلّمونا من سجن إلى زنزانة . . ولم أكن من قبل أدري كيف تكون الزنانين .

أيامي في أمريكا كانت محض انتظار بين انتظارين . . وبعدها كان يجب أن يفضي هذا الانتظار إلى سلوان جميل . . لا إلى زنزانة مظلمة . حالياً أفكر أنه يفضي إليك ولا يمكن أن يفضي إلى سواك . . أنا الآن معزول عن الآخرين في السجن ، مختَلٍ بنفسي طيلة الوقت أفكر بما كان وسيكون . .

لقد ضاقت عليّ أيام الانتظار ، ولكنها جرجرتني رغماً عني إلى سكون بعد عواصف . . سكون عميق ومريح . . مثل شاطئ رملي دافئ يحط عليه طائر كان يحلق فوق لجة . يحق لي الآن ، أنا الذي كنت غريق الأحلام ، أن أتمدد وأن أخط فوق رمل الشواطئ اسمي كفرد يولد من جديد . سأجرب كيف يكون اختلافي كفرد . . وأحاول أن أعيد صياغة الحلم من جديد بعيداً عن العتمة الزائدة أو الضوء الباهر . . .

أجدني أحياناً أبكي من هول الخشوع وأنا أتوضأ لصلاة الفجر . .

وأحياناً أرقص من خفة الشدو وأنا أهتف بلحن جميل . . وأنا الآن مثل ورودك التي تمد أعناقها للنافذة بحثاً عن ضوء الشمس ، أقول لنفسي : هل القلب دليل صادق للأشواق؟ . . وهل الوردة ترى ما لا نرى من مكانها الثابت المستتب الى أبد الآبدين ، بينما نحن الذين ازدحمت رغباتنا وتشاسعت مسافاتنا على الأرض ربما منذ أبينا آدم عليه السلام ولحد الآن ، تهنا وتقاطعت أقدارنا وتناثرت منها الدماء؟ . أما بذور الوردة فإذا ما تقاطعت فلا يتناثر منها غير الورود . . قلت لي إن الوردة مهما كبرت وتفتحت فلن تجد في داخلها غير الوردة . فهل يوجد في الجنة ورود؟ قطعاً هي ليست في النار .

الورقة الثالثة

عندما يسمحون لي ربما أستطيع التحدث معك إذا أعطيتني الرقم؟ فجأة أصبحوا يعاملونني بشكل أفضل عندما علموا بأني كنت طالبا للموسيقى في بلادهم؟ . .ثم عادوا وتركوني عندما وجدوني أصلّي وأقرأ القرآن .

هل تذكرين نداء الجذور؟

اشتاقت وردتي للوردة التي بقربها

فهما من جذر واحد .

فهل سأراك عندما أعود؟

الورقة الرابعة

تهمتي تحولت من تهديد مترجم إلى مشاركة في التمرد العراقي ضد الأمريكان . في الليل المحقق يضربني ، وفي النهار الطبيب يعطيني الدواء والفاكهة ، وأنا أكره الاثنين .

(٢٢)
رسالة لم يرسلها ياسر

في الأرض الجديدة كان عليّ تحسين اللغة الانكليزية ، ومشاركة مجموعة من الطلاب إحدى الشقق التي تحيط بمعهد الموسيقى في بوسطن . بحثت عن شقة مزدوجة تكون أرخص سعراً من الشقة المفردة . وحين اخترت واحدة اكتشفت أن رفيقي في الغرفة ، شاذ . قبلت الشقة مؤقتاً على مضض ، ورحت أبحث مرة أخرى بين الإعلانات وفي الإنترنت عن شقة أخرى يكون شريكي فيها مثلي طالباً في مرحلة الدراسة العليا ، أو على الأقل ، يكبرني قليلاً في السن . . لعل ذلك يقلّل من إمكانية تكرار المشكلة . ولكني اكتشفت أنه لا يمكن الانتقال من الشقة القديمة ، إلا بالتنازل عن العقد الذي يلزمني البقاء فيها مدة عام أو إيجاد (الروم ميت) البديل الذي يحل مكاني لكي لا أدفع الغرامة عن ترك المكان شاغراً . لم أكن قد شاهدت شاذاً من قبل ، ولا كنت سأميّزه لولا أنه استأذنني في استضافة صديق له في الشقة مساء . اعتقدت ، بسبب اللغة ، أنه صديق مؤنث ، ولكن عند حلول المساء اتضح أنه رجل . كان إعلان المجمع السكني يقول في حال حجزكم غرفة مزدوجة تأكّدوا من أن تكون إقامتكم مع الشخص الصحيح . فهل هذا هو المقصود بالشخص الصحيح؟ وعليه كان لزاماً عليّ أن أساله إن كان شاذاً أو لم يكن؟

تركت الشقة المشتركة إلى شقة مشتركة أخرى ، بعد أن عثرت على البديل الذي سيوفر علي دفع الغرامة ، ليس لأنه لا يبالي بالإقامة مع

الشخص الصحيح أو غير الصحيح ، بل لأن تعريفه للشخص الصحيح مختلف على ما يبدو عن تعريفي . فعندما أخبرته بالسبب الذي دفعني الىٰ ترك الغرفة هز رأسه بحياد ورفع كتفه بلا مبالاة وقال إنه لا يهتم ، كما إنه يكره الحكم على الآخرين . وتعلمت درسي الأول في الغرب ، إن الحكم سلبا على الآخرين شيء غير أخلاقي وغير مقبول . سألتُهم بهدوء يقترب من المكر إن كان هذا مخالفاً للقانون؟ قالوا لا ليس مخالفاً للقانون ، ولكنه مخالف للأدب . . فكان علي أن أجد تعريفاً آخر للأدب قريباً من تعريف الشرف الذي التبس عليّ معناه هو الآخر بشكل كبير ، لأن الأمين الشريف هناك هو الذي لا يكذب ولا يسرق ولا يدلّس أو يدلي بمعلومات خاطئة فيما يكتبه من بيانات .

الشقة الجديدة كانت مع طبيب عراقي شاب ترك مهنة الطب واشتغل طالباً للجوء الإنساني . . أي إنه كان نائماً طوال الوقت ، لا يصحو إلا في الثانية عشرة على موعد الطعام في مطعم يقدم وجبات غذاء مجانية ، ثم يذهب بعد ذلك إلى عمله جليساً للأطفال عصراً . كنت أحذر التدخل في شؤونه أو الحديث معه عن وضعه الغريب إلى أن قال لي يوماً ، من تلقاء نفسه ، إنه حاول العثور على عمل كطبيب ولم يفلح ، وإن عودته إلى العراق مستحيلة لأن زميله في المنحة الدراسية التي حصل عليها ، بعد الحرب ، قُتل أول عودته إلى العراق ، فخاف هو من العودة . وهو الآن لا يدري ماذا يفعل؟ . .

وجدت تعاريفهم مختلفة ، ليس للشخص الصحيح والشريف فقط ، وإنما للحزن وللوطن وللصداقة أيضاً ، وزادتها الحرية طيناً على طين ، فتجدين ما هو ممنوع قد يصبح مسموحاً بلا مبرر سوى أن الحرية لا حدود لها وكل شيء سيحترق في أتونها قبل أن ينضج . هذه الحرية هي نفسها التي تجعل الجوامع مفتوحة للناس ، وتغيير الأديان مثل تغيير الأزياء ،

وارتياد المسارح والسينمات ضرباً من الحرية الشخصية التي لا يحق لأحد الاعتراض عليها أو التدخل فيها . بدا الأمر لي ، للوهلة الأولى ، باعثاً للانبهار والتمني ، إلى أن وجدت ذلك الشاذ يقف في باحة الجامعة ، يوزع نشرة يدافع فيها عن حقوق الآخرين المدنية ، ويساهم ضمن حملة تدعو إلى رفع الآذان في الجامع بصوت عال . لم أغضب هذه المرة وإنما ضحكت ووقعت في المأزق الأخلاقي لتعريف الشخص الصحيح ، أهو أنْ تُصبح مختلفاً عني ، ولكنك تدافع عن قضيتي؟ أم تصبح شبيهاً لي ، ولكنك خامل ومتحجر ولا تفعل شيئا؟ أم أن تترك الاثنين وتصبح (أنونيميس) أي غير مرئي فلا تراني ولا أراك؟ . وحاولت أن أبتعد عن التفكير بهذه المشكلة الى أن عثرت على زميلتي عازفة الكمان الأمريكية من أصل لبناني ، وكانت باهرة الجمال وكان اسمها جوزيل .

تعرفت عليها في حفل ريسْبِشن أُقيم على شرف أحد أساتذة الموسيقى الزائرين في بوسطن . جلست قربها دون أن أقصد ، وانصرف انتباهي من المحاضرة إليها ، كأنني شعرت من نظرة واحدة إلى عينيها أنها عربية ، وأن ملامحها التي كانت أجنبية خالصة كان يعوزها تلك الانطلاقة الواثقة نحو الأغراب ، والتي غالبا ما تجعل الحياء نادراً على وجوه الفتيات الأمريكيات . فسلمت عليها باللغة العربية وأجابتني باللغة العربية ، وعندما جاء النادل وقدم لنا قدحين من الكوكالا اعتذرتْ وقالت إنها تقاطع هذا المشروب . انبهرت بها . . وخجلت من نفسي . . ووقعت في غرامها على الفور ، وشعرت بأنني قد فزت بصيد ثمين . ومرت الأيام ونحن نتبادل الإيميلات والمكالمات الهاتفية دون أن نلتقي ، بسبب الامتحانات ، ولكنني تماديت في حلمي وتأكدت أنني سأتزوج من جوزيل في يوم من الأيام . كنت أرى ذلك الحلم قريباً منها ومن قلبها إلى أن جاء الصيف فوجدتها ترتدي الملابس الفاضحة وتتشمس في حدائق القسم

بملابس أقرب ما تكون إلى الملابس الداخلية ، فوقعتُ في المأزق الأخلاقي مرة أخرى وتداخلت عليّ الأفكار والهواجس ، فهل أحكم عليها من جسمها المكشوف الذي لا يلتفت إليه أحد هنا لأنه ، بحكم الاعتياد ، أصبح شيئاً روتينيا وعادياً لا يبالي بالنظر إليه أحد ، أم أنظر إليها بحكم موقفها الجميل الذي أحرج جميع العرب الموجودين في الحفل عندما كانت الوحيدة التي رفضت تناول الكوكاكولا؟ وبدأت مناظرة جديدة مع نفسي عن الشخص الصحيح . . وطالت تلك المناظرة وتشعبت حتى ضاعت جوزيل إلى شخص آخر ، وندمتُ على ذلك أشد الندم ، فلم أكن قد أصدرت حكمي عليها بالسوء بسبب ملابسها ، ولن أجرؤ على ذلك قط ، فكيف تكون سيئة أو سوقية من تفكر بفلسطين وهي على مائدة عشاء أمريكية؟ . قالت هكذا علمها والدها منذ الصغر ، وهذا تناقض لم أفهمه قط ، وكان يصعب علي استيعاب مفارقة أن يربي والد ابنته على الجوهر ولا يهتم بالمظهر . وعشت صراع البداوة والتحضر في أن أفصل بين اثنين لا يمكن الفصل بينهما في ديني وثقافتي .

كان صديقي العراقي يسخر من بعض أفكاري ومعتقداتي ، ويسميها بالصدأ المتراكم على العقول ، ويقول إنه أيضاً كان يذهب للجامع فيما مضى ولكنه الآن يسخر من كل هذه الخزعبلات . كنت أعتقد أنه يفعل ذلك ليبرر لنفسه شرب الخمر والتقلب بين النساء ، إلى أن قال لي إن التبشيريين يعملون بجد على المهاجرين العراقيين لتحويلهم عن الإسلام ، وقد نجحوا في ذلك مع المعوزين والوزراء على حد سواء . وقال أيضا إنه قد نعم بموائدهم العامرة التي كانت تقام بعد القداسات ، ولكنه لم يجد في خزعبلاتهم شيئاً أفضل من الطعام .

كنت قد أصبحت كمن يمشي على الأعراف . . ففي وجودي في بوسطن ، لم يكن هناك من يمنعني من ممارسة عباداتي ، بل إقامة صلاتي

في الجامع ، أو يجدها متعارضة مع دراستي للموسيقى ، وحتى من يجدها متعارضة لم يحكم عليّ بشكل سافر أو يتدخل بشؤوني كما نسمح نحن العرب لأنفسنا أن نفعل . إنهم غارقون بفردياتهم مجذوبون إلى شاشاتهم الإلكترونية ، وليس هناك ما يستحق القلق من أجله . ولكن أنا كان لدي ما يقلقني ، وما كنت أرى تعاريفنا للأشياء صدَأً . كيف تكون صدأ ونحن عشنا بأمان الله مع كل العهود ، ولم تتعارض طقوسنا في الحج والصوم والأعياد مع الحياة الجميلة؟ . دعوت صديقي العراقي أكثر من مرة إلى أن يأتي معي إلى الجامع ، فكان يرفض بشدة ويقول إنه قد غسل يديه من الدين . هنا خفت أن أرى نفسي فيه وأُصبحَ ما صار هو فيه وأنتهيَ نهايته . لقد كانت سعادته بالجواز الأمريكي في جيبه ما بعدها سعادة ، وكان يريد لي البقاء والحصول على هذه الوثيقة السحرية ، وقال لي : «إن لم تفعلْ ستشبع من الذل والمهانة في المطارات» . . كان يبدو كمن حرق المراكب كلها خلفه ولم يبق أمامه سوى التقدم إلى أمام ، ولكنه بكى على كتفي مثل الطفل الضائع وهو يودعني ويقول «دير بالك على نفسك» . كان اسمه ويا للمفارقة طارق زياد .

ومن جهة أخرى كان أستاذي الأمريكي تجريبياً إلى النخاع ، ويلخص الشخصية الإنكليزية والأمريكية بشكل عجيب ، فيقول إنها شخصية توماس أديسون ، مخترع المصباح ، الذي يقول عليك أن تجرب ألف طريقة خطأ للوصول إلى الطريقة الصحيحة . وكنت أحبه جداً في اختراعاته التي لا تنتهي ، وآخرها عندما ألّف لنا موسيقى عجيبة يتداخل فيها العزف مع التمثيل أو مع تصرفاتنا العفوية . . وكالعادة فإنّ (إمّيزِينك وفانتاستِك) كان رأي الحضور دائماً ، ولم يكن هناك غير جميل وعظيم ومبهر في ما تسمعينه من آراء ناس مغامرين يعشقون الصرعات . لكن هذا الأستاذ راح يقيم لنا ، بعد الحرب ، حفلات خاصة ويهديها لأطفال العراق ، فكنت

أشعر بالقرف من نفسي وأنا أعزف وبلدي يحترق . وعندما أصبحت ، بعد نيل الشهادة ، على مفترق طرق بين طلب اللجوء أو العودة الى العراق ، قررت اختيار خط الرجعة وعدم إحراق مراكبي حتى وإنْ أحرق الجميع مراكبهم .

وصلت العراق في أيام سود ، ولم يكن أمامي من طريق غير الجامع ، ولا تظني أبداً أنني قد آذيت أحداً ، ولكنني استطعت أن أجد أن ضميري واحد لا يتغير ، لأننا تربينا على تعريف واحد للشرف ، وكلُّ أشعارنا وإنشاءاتنا التي كتبناها في دروس الوطنية وامتحانات البكالوريا كانت عن الشرف الرفيع وعن الوطن ، فلماذا عندما جئنا نطبقها على الأرض لم يرحمنا أحد؟

صدفتي أنا مع الأصول والألقاب عجيبة ، فجدّي لأبي مسلم من بيت الرسام ، وجدي لأمي مسيحي من بيت رسام ولم أجدهما قد اختلفا في يوم من الأيام ، بل كانت أمي تقول لأبي إن المكتبة اختراع رافديني بحت ، وإن أحد أجدادها هو الذي اكتشف مكتبة آشور بانيبال العظيمة والرقم الطينية لأحداث كلكامش في تل قاينجو قرب الموصل ، فيقول لها إن أجداده استماتوا في الدفاع عن سور الموصل وهم يرمّمونه كلما هدمته مدفعية قوات نادر شاه التي هاجمت الموصل في القرن الثامن العشر . . هل اختلفا؟ لا أعتقد ، لأن الصحيح لا يستدعي رواحاً للقاضي كما يقول المثل . وأنت أيضاً ورثتِ مثلي كل هذه الدروس والتعريفات ، ولكن الذي اختلف هو أنها باتت كالكرة التي تُرفع وتُكبس من أجل السياسة . أما الذين يؤمنون بها بصدق فأين هم لإنقاذ هذه السفينة الغارقة؟ إنهم يهجرون السفينة كالفئران . . وأنا أولهم . لم أعد ألوم هؤلاء بعد ذلك ولا ألوم الطبيب العراقي بعد أن عدت ورأيت ما رأيت . . . . . إنهم يهربون من الموت إلى الحمّى ، وقد أصبحت مفردات المعونة وطوابع الطعام أجمل في

أفواههم من هذا الوطن التعيس ، الذي لم يعد فيه سوى الفوضى والصور القبيحة والحواجز والأنقاض والأسلاك الشائكة ، فكيف يتحقق الهدوء في مكان بشع مثل هذا؟؟ كيف يشعر الناس بالسعادة في مكان فاشل وكئيب كهذا؟؟ كيف يفرحون والمكان تعيس؟؟ . . .بغداد صارت فوضى ودماراً ، ولا يمكن لكل هذه الفوضى وهذا الدمار إلا أن يخلقا الفوضى والدمار .

أهلي كانوا قد غادروا بغداد إلى الموصل ، فوجدت نفسي في ورطة ، لأنه لم يكن من الممكن بقائي بعيداً عنهم في مثل هذه الظروف حتى وإن كان ذلك في بيت عمتي في بغداد . أما بيت جدي فقد كان عمي ، وهو آخر من تبقى فيه ، قد تركه فارغاً وغادر إلى سوريا . استفقت على ورطة في مكان هو موطني وموطن أهلي ، لكني لا أعرف عنه الشيء الكثير . . ولقد قلت لك كلاماً كثيراً ، كان بعضه رد فعل مبالغاً فيه ، وأمي أيضا بالغت فيما أَصبحتُ عليه ، فأنا قد التجأتْ إلى الجامع ، لأنه كان مكاني الأمين وسط هذه الغابة ، وكان ركناً ظليلا أهرب إليه من جحيم خانق .

أنا الآن هارب مرة أخرى من السفينة الغارقة . . ماذا يعني أن أرفض أو أن أعارض؟ ماذا يعني أن أشتم صديقي المترجم أو أخالفه في الرأي؟ . . . لم تعد تفرق معي ، لأن المكان الفاشل هو الذي يخلق كل هذا الفشل ، وأنا لست سياسياً لكي أستطيع انتشاله من كل هذا الفشل . . أنا فنان . . وحكايتي مع الدين بدأت في الغرب ، وكانت ، ويا للمفارقة! حكاية جميلة ، ولكنها انتهت هنا ، وكما قلت أنت ، نهاية سوداء لا أحلام فيها ولا آمالٌ ، ولكنْ خراب في خراب . . كنت أريد أن أبقى ولكن!!

طال مقامي في بيت ختام ، واستبدلتُ التقويم مرتين وإخوتي يتلكّؤون في السفر ويتباطؤون في العودة ، لا أدري لماذا؟ . وكنت أحلم مرة بعد مرة ببستان يابس مملوءة أرضه بالورق الأصفر المتساقط ، فتقول لي ختام وتكرر :

– هذا هم . البستان اليابس هم . . فلا تهتمي! أن يعتقل ياسر هنا أفضل من أن يسافر ويتغرب ويضيع هناك .

ختام تكشف لي كل يوم عن وجهها القديم الذي لم أكن أعرفه من قبل ، ويبدو لي الآن هو الأكثر وضوحاً ورسوخاً من باقي الوجوه . وعندما تفتح لي صندوق ذكرياتها أيام زمان ، تعود تلك الأميرة التي ولد ابن عمها يوم تنصيب الملك وولدت هي يوم مقتله . . لكنهما لم يتزوجا في النهاية ولم يعيشا في ثبات ونبات كما في قصص الأطفال السعيدة ، لأن الساعة الثانية عشرة دقت أكثر من مرة وتاه عليهما الوقت الخاطئ من الوقت الصحيح ، فكان أن تقلّب بهما الزمان وتبعثر حولهما المكان . ولما سألتُها ، في لحظة صفاء نادر من لحظاتها ، لماذا اختلفا؟ قالت :

– إن الطفل يعرف أن هذا اللون أبيض ، لأن أبويه أخبراه بذلك ، فإذا أخبراه بأنه أحمر سيكبر معتقداً أنه أحمر . . ونحن كنا في كل يوم في حال ، وفي كل ساعة في شأن .

– ولكنه هاجر ثم عاد ليأخذك ، فلماذا رفضت؟

– لأن سُرّتي مقطوعة في هذا المكان . . روحي معجونة فيه . . ولو

كان يحبني حقاً لعاد من أجلي .

– هل تعرفين أن السُّرّة للجسم البشري هي كمركز الثقل للأجرام السماوية الضخمة ، كالشمس والأرض والقمر ، وأن كل ما يجري داخل الجسم له علاقة بالأرض والشمس وبأطوار القمر الأربعة؟ . . يدور القمر حول الأرض ، ويتم دورته حول الأرض بتسعة وعشرين يوماً هي الشهر القمري ، ومع حركة القمر حول الأرض تضيء الشمس وجه سطح القمر الظاهر للأرض ، فيبدو في البداية جنبه الأيمن مضاءً على شكل هلال ثم يستمر بالزيادة حتى يسطع كاملاً ويصير بدراً ، وبعدها يبدأ بالتناقص حتى يختفي كلياً عن الأنظار ويصبح في المحاق .

– شوفي شغلك . . أنا بأي طور الآن؟

– أنت أطوار القمر الأربعة .

– بل أنا في طور القمر الغائب . . يعني في المحاق .

– حتى عندما يغيب القمر في المحاق فإنه ينمحق ليعود من جديد . . وسواء كان بدراً أو في المحاق فإن له تأثيراً بالغاً في الجسم البشري . . قولي لي ما هو برجك؟

– الحمل .

– حقا؟ ها إذن أنت ابنة الربيع . . ولست ابنة المحاق .

– الربيع؟ ما أجمل الربيع في بغداد!

ثم قالت :

– حدثتني أنت عن الزمان ، فلأحدثك عن المكان . . .

راحت تحدثني عن مدينتها التي تحبها كما لو كانت تفتح لي خزائن كنوزها ومجدها التليد . . قالت إن شارع الرشيد هو أكثر ما تعشق في بغداد ، وأنها كانت كلما تحزن أو يصيبها الاكتئاب تحمل نفسها إلى شارع الرشيد وتقطعه مشياً على الأقدام من جسر الإذاعة وحتى المدرسة

المستنصرية ، وهناك تطالع المقاهي والمحلات وهي ترسم لوحة يومية تكتمل بالهيئة نفسها ، ولكن بغير الوجوه ، وتتباطأ قليلاً عند واجهات استوديوهات التصوير وتتطلع إلى الصور الفوتوغرافية الكثيرة المعروضة بنسق جميل أغلبها لعرسان ريفيين تُشوِّه وجوهَهم رتوشُ الألوان الفاقعة ، أو لشبابٍ يرتدون قبعات سوداً مربعة الشكل ، وجبباً جامعية كُتب تحتها بخط أسودٍ غليظ (العمر خيال فسجّله قبل الزوال) . . ثم بعد أن تعبر جامع الحيدرخانة تتتابع محلات الحلاقين الذين كانوا يعلقون على زجاجات محالهم في الثمانينيات صوراً لمغنية تركية اسمها هوليا ، ولأخرى إيرانية اسمها كوكوش ، وفي السبعينات صوراً أخرى لنادية لطفي وزبيدة ثروت وسعاد حسني ونجلاء فتحي وميرفت أمين . أما محلات العصير فكانت تعلق على واجهاتها الزجاجية وجدرانها السيراميك صوراً للفاكهة وعناقيد العنب الاصطناعية . . قالت :

– دائماً كنت أتوقف هناك لشراء عصير الرمان ، وكانت علامة فارقة من علامات شارع الرشيد مثلها مثل خان مرجان وكعك السيد والمصور أرشاك والشورجة وحافظ القاضي وتسجيلات الجقمجي . . هل تعرفين أني أعرف عدد الدنك الموجودة في شارع الرشيد؟

– أتمزحين؟

– كلا ، لا أمزح . . إنها ألف ومئتان وأربع دِنكات . . كنت أعدها على مراحل ، في كل مرة أنزل الشارع ، مرةً من أجل الشورجة ومرةً من أجل السوق العربي ، ومرةً من أجل عَكْد الجام ، ومرةً من أجل سوق الصفافير ، ومرةً من أجل سوق دانيال ، ومرةً من أجل سوق السراي . . ومن هناك كنت أذهب إلى شارع النهر لأتجول في سوق الملابس الذي توجد حوله أجمل أسواق الذهب والقماش والسجاد والنحاس والستائر . وفي كل مرة كنت أتوقف عند المحلات وكأني أراها للمرة الأولى . وتكون

الخاتمة المرور بسوق الفضة ثم المدرسة المستنصرية ثم الجلوس على المصطبة التي تقابل تمثال الرصافي وتجاور المتحف البغدادي لأنتظر الباص رقم اثنين وأربعين يقلني من الرصافة إلى الكرخ ، حيث أعبر نهر دجلة من فوق جسر الشهداء الذي كان يُسمى الجسر العتيق ، ولكنه سُمي بالشهداء بعد ثورة تموز تخليداً لهؤلاء الذين سقطوا عليه في وثبة كانون ، إحدى صولاته الشهيرة التي أسقطتْ حكومةَ صالح جبر عام ١٩٤٨ ، احتجاجاً على معاهدة بورتسموث ، وقد رثى الجواهري أخاه جعفر الذي استشهد في تلك الواقعة بقصيدته الشهيرة :

أتعلم أم أنت لا تعلمُ بأن جراح الضحايا فمُ

هذا الجسر كاد أن يُستشهد هو نفسه عندما أصابته قذيفة في حرب الخليج الأولى ، ولكنه ، لأنه جسر الشعب ، سرعان ما عاد إلى الحياة من جديد كما عادت من بعده جسور الجمهورية والصرافية والمعلق . . جميعها قاتلت من أجل الحياة مثلما قاتلنا ، فيا لها من وظيفة جديدة للجسور!

كانت تواصل وتقول إن أباها كان شيخاً من شيوخ الصابئة بدرجة الترميذة ، وكان صديقاً لجد ياسر الذي كان ضابطاً في الحرس الملكي أيام الملك ، وكان يرافقه في رحلاته إلى سرسنك والموصل وبيخال . أما هي فأصغر إخوتها ، ولهذا أسموها ختام ، وإن الأميرة عابدية بعثت لها هدية في يوم مولدها قبل أن يقتلها المجانين هي وأهلها تلك القتلة الشنيعة في قصر الرحاب . . كانت النساء تبكي الملوك ، والرجال يشاركون الثوار فرحتهم ، وبعضهم يساهم في السحل والتقطيع . ثم لما حكم عبد الكريم قاسم العراق هذا ، ثار عليه الرجال من جديد . . هذا هو دائماً شأن الرجال . . عطش إلى السلطة . . جوع إلى القوة . تحسرت ثم قالت :

– كنا نسكن الأعظمية ، وكان الأعظميون يعشقون عبد الناصر ولم يكن الشيوعيون يحبونه ، ومع ذلك كان بيت عبد الكريم الجدة يجاور بيت

عبد السلام عارف . . لعلك تعرفين الثاني ولا تعرفين الأول . . إنه المرافق الأقدم لعبد الكريم قاسم ، وقد كان الاثنان يتجولان في شوارع بغداد بلا فخفخة ولا هرج ومرج ، وبدون مرافقين سوى السائق . . وقد دخل الزعيم مرة على أحد المخابز الحكومية في منطقة الكاظمية ورفع شنكة عجين ووضعها على الميزان ، ولما وجدها تنقص بعض الغرامات ، التفت إلى صورته الكبيرة المعلقة على جدار المخبز وقال لصاحب المخبز : وليدي صغّر الصورة وكبر الشنكة .

كان يفعل ذلك في النهار والليل بلا كلل ، وقد كان جارنا عبد الرحمن الحافظ مؤذناً في جامع الإمام أبي حنيفة ، فأوقظه ذات ليلة من النوم وأعطاه عشرة دنانير . . ما أكبرها في ذلك الوقت! عندها ندم ابنه إبراهيم على النذر الذي نذره بذبح ابنه قاسم إذا مات الزعيم ، ليس بسبب الفلوس ، ولكن لأن أباه أخبره أن هذا الرجل في غاية الطيبة واللطف . لم يكن إبراهيم ليذبح ابنه قاسم ، على أية حال ، ولكنه كان فقط ساخطاً على الاسم مثلما كان الشيوعيون ساخطين على اسم جمال ، فكانوا لا يشترون صابون اسمه (الجمال) ولا يُدخلونه إلى بيوتهم . والدتي وسيلة كانت معلمة وكانت تحب زمن الملوك وتسمّيه بالعهد البائد ، وكانت صورها بين زميلاتها في بيت المعلمات تشبه صور نجمات السينما في الأفلام . هكذا كان حالنا في الستينيات ، كيمونة ويومية عمامة تنقلب ولكن عايشين . وجاءت بداية السبعينيات فسموها العصر الذهبي بالرغم من أن محافظ بغداد أمرَ بصباغة الأرجل المكشوفة للبنات بدهان أبيض ، ولكن الناس كانت لا تبالي ، وعشنا عصر الجبهة الوطنية التي كانت أفضل من لا شيء ، بل يمكن هي أفضل ما عشناه لحد الآن . . لقد كنا نسافر إلى لندن كل صيف كما لو كنا نذهب إلى الحبانية . . . أما باصات المصلحة فقد كان فيها باب للصعود وآخر للنزول . . وما أجمله

قرص الجرس الأحمر النظيف في سقف الباص إذا ضربته توقفْ الباص ، ولكني لم أجرؤ على ضربه قط . . كنت خجولة جداً . . خجلي ذاك منعني من التقاط صورة مع عدنان القيسي عندما زار كلية العلوم التي تقع قرب ساحة عنتر في بداية السبعينيات ، ولكني ذهبت إلى ملعب الشعب مع مئة ألف متفرج عندما خاض نزالاً مع البطل الفرنسي فريري العملاق . ولكن دعيني أخبرك شيئاً ، وهو أننا في عصر الراحة والبحبوحة الذي خطفناه من الزمان . . عشنا أزمات ومشاكل لا أول لها ولا آخر .

ولكن الحياة كانت تسير بشكل عادي رغم البلاوي والحروب . . تخيلي مثلاً أن اللافتات السود راحت تتسلق البيوت في الثمانينيات ، وأمانة بغداد تصدر تعليمات صارمة تلزم البيوت بزرع نخلة وشجرة زيتون في كل حديقة من حدائقها الغناء . ومنذ ذلك الوقت تُشكل هاتان الشجرتان علامتين من العلامات الفارقة في بيوت العراقيين . . وعندما يأتي فصل الصيف تجدين عثاكل التمر المثقلة بثمارها تزين قامات النخيل كما الأقراط ، بينما يظل يتساقط زهر الزيتون الأبيض ، لشدة كثافته وكثرته ، على الأرض ، ويغطيها كالفراش لحين يأتي موسم القطاف في الخريف فتمتلئ الجرار بالزيتون المخلل ، وتفيض السلال بالتمور بالألوان والأشكال التي تتجاوز أعدادها المئات ، ويتبادل أطباقها الجيران في هذا الموسم من مواسم بغداد ، التي قال فيها الملا عبود الكرخي (بغداد مبنية بتمر فلش وأكل خستاوي) .

قلت لها ، بعد أن هزت رأسها الذي أفرغتْه من الذكريات ، بحسرة طويلة من الألم :

– لماذا إذن أحرقتِ كل تذكارات الماضي؟

– لم أعد شغوفة به ، وأريد أن أبدأ من جديد . . إن البشر الذين يجمعون العنتيكات من حولهم سيتحولون هم أنفسهم إلى عنتيكة .

(٢٤)

كنت أنظر من نافذتي العلوية إلى بيت ياسر الذي كان يغرق في نور الشمس تارة ويعتم بالظل تارة أخرى ، وفقاً لمسيرة الغيوم وتفاوت أشكالها تحت السماء . لقد أصبحتُ شاردة الذهن أفكر فيه طوال الوقت ، وقالت لي ختام إني صرخت باسمه في منامي ذات ليلة . . هل كان حباً من النظرة الأولى؟ سألتني ريم ، فقلت لها ربما حب من النظرة الأخيرة . فعندما أُغلِقَ البابُ دونه وشعرت بأنه غاب واختفى في طريق مجهول ، وأصبحت بيني وبينه عقبات وعقبات ، كان ذلك امتحاناً للشوق أو امتحاناً للنسيان ، وكان يمكن للأخير أن يكون هو الأبقى والأَوْلى أن يكون ، لولا أنّ الذي جمعنا هو الذي كاد أن يفرقنا . إنها ضربة الرجل الأمريكي على الباب ، وهو يبحث عنه في اليوم الأول من دخوله إلى البيت . تلك الضربة أفزعتني وأرعبتني في البداية وجعلتني أندم على ما فعلت ، ولكن هذا لم يمنع من أن تجعلني أشعر بأننا جماعة واحدة أمام هؤلاء الغرباء ، وبأن عليّ أن أحميه من هؤلاء الطارئين . ها هم ، مثل شهر آذار المهذار الذي جاءوا فيه ، يدخلون كالنمور ويخرجون كالحملان .

أما ياسر فإنه اليوم يخرج من السجن بعفو عام . . وأني تخرج ، بين الحين والآخر ، لتضع مزيداً من الياس على الأبواب وتصفّ الكراسي في الحديقة . عامان مضيا منذ أن غادرتُ ذلك البيت . . وقد غادرتُه وأنا راغبة فيه . . ولا يجوز للإنسان أن يحرم نفسه من شيء هو راغب فيه . . هذا ما

قاله ياسر ، وقال أيضاً إنه هو أيضاً كان سيغادر إلى أمريكا وهو راغب فيه لأن هذا البيت هو المكان الحميم الذي تمر به الرياح ولا تعصف به . ولكن الرياح عصفت به بعد أن كرر الزمان نفسه ففوجئ ، مثل جده تماماً ، بالحرس عند الباب وهو يعمل بجد بين ورود الحديقة . لم تكن هويته المزورة بذات نفع وهو في بيت جده المعروف بالمنطقة ، فذهب ياسر إلى السجن ، وجاء أبوه وأخوه إلى بغداد ، وفضّل الجميع المكوث في البيت مرة أخرى لكي يكونوا قريبين من سجنه قرب المطار . . وها هي أني تعمل بجد بين الورود في لحظة انتظار . . وأنا أنتظر أهلي أن يعودوا قريباً إلى بيتهم في الغزالية ، فهو حلم مؤجل إلى تلك اللحظة ، وأنا بدأت أفكر بالسفر مرة أخرى بعد أن حكم الوعد المكتوب بأن يطول مكوثي في بيت ختام ، وبأن أبقى فيه مدة عامين من الانتظار . ليتهم جميعاً اليوم هنا ، لنجتمع في هذا البيت ، ومعنا أمه وأبوه والجيران وأقارب كثيرون . . أما الأطفال فما أسرع ما ينسون المصائب ويملؤون البيت باللهو والضحك والضجيج . اليوم البيت بيت مثلما يجب أن يكون عليه البيت الجميل . . أطفال وطعام وأزهار وكلام وضحك ولعب وضجيج . اليوم باب مفتوح وجرس لا يكف عن الرنين ، ودراجة فتى الحدائق عمار مركونة بجانبه ، ليس عمار الذي لم يعد من الديوانية قط ، وقالوا إنه هاجر هو الآخر إلى الدانمارك ، وإنما الحدائقي الجديد الذي يشابهه في العمر واسمه ، ويا للصدفة ، عمار أيضاً .

الوقت الآن بداية شهر كانون الثاني ، وثمة خبر في التلفزيون أمامي يقول إن مدينة باريس قررت إطفاء أضواء أشهر معالم المدينة ، برج إيفل ، في وقت أبكر من المعتاد هذه السنة وذلك توفيراً للوقود . عشرون ألف مصباح ستُطفأ اليوم في باريس ، مدينة النور ، وعشرون ألف مصباح ستشتعل في هذا المكان ، وكل الظلام الذي حاق به ستمسحه قوة الحب

والصفح الجميل .

كانت ختام تجلس في الحديقة هامدة من شدة السكون ، وهي ترتدي معطفَ فروٍ من تلك المعاطف التي كانت النساء يجلبنها من سفريات الخارج ، فتبقى معهم طوال العمر . تُرى لماذا احتفظتْ به ولم ترمه مع ما رمت من أغراض البيت؟ . . كم تبدو تلك المرأة أكثر عطفاً من الجميع وأنا التي اعتقدتها في البداية في الطور الأغرب من البشر . ثمة فرقة موسيقية مزهوة في الباب لم تتوقف لحظة واحدة عن عزف موسيقى القرب تلك التي كنا نسمعها في الاحتفالات الرياضية والوطنية . . لا أدري من أين أتت بها أمه؟ ولكنها قالت إن خروج ابنها من السجن هو يوم وطني وعيد مجيد .

الشمس الساطعة في السماء توحي بجو دافئ رغم البرد الشديد ، وثمة نباتات صغيرة أمالت رؤوسها حيث يتدفق النور وكأنها خير من يدرك السعادة . نحلة صغيرة بنّية اللون كانت تحلق فوقها بهدوء فتبدو طافية في الهواء من شدة النحول . إنها إن نظرت إليّ الآن لن أعرف ، وإن تنبأتْ بمكان وردة أخرى لن أعرف ، ولكنها تبدو سعيدة وغير مبالية ، وتقول لي بلا لسان إن خير من يدرك السعادة هو من يفتح قلبه للحياة بغريزة النحل وشهادة العسل . .

هذه الشمس الساطعة ، أهي التي تجعل الأطفال يملؤون الشارع بالطنين؟ أم إنهم يعرفون أن العيد قادم . . كان الجميع ينظر إلى أمام أو إلى قبل الأمام . أما الماء الضاوي الذي ملئت به الجرار فبدأ يشرق من أوعية كبيرة تريقها الأيدي خلف ماضٍ رحل وأخذ معه آخر الأحزان . الأيادي تتحرك . . إنها ترتفع . . تتلاقف الأوعية التي بدت لي أكبر مما ينبغي ، وعندما عددتها وجدتها تسعة ، وثمة شمعدان كبير حملَتْه آني ووضعَتْه في الحديقة رغم أن الوقت نهار .

فجأة ارتفعت موسيقى القرب تعزف أغنية وطنية قديمة يقول مطلعها (جنة جنة جنة) ، وأغمضت عيني من شدة الخوف ، ثم فتحتهما من جديد وأنا أقطع أنفاسي من شدة السكون . . ورأيته . . رأيت ياسر العائد من سجنه يترجل من سيارة بيضاء تحمل شدة ورد على مقدمها . . الآن أعرف لماذا تنقطع الأنفاس عند الإحساس بأمر عظيم؟ . . إنه لكي لا تشوش حركتها على هذا الدوار الخافت الذي يترك في العين ما يشبه الأثر الذي يتبقى في الأصابع بعد الإمساك بأجنحة فراشة . . . لست أحلم بالتأكيد ، لأن صوت الزغاريد جلجل بعد قليل ، وهذا هو أمامي ، وأول ما فعله عندما نزل ووقف بالباب هو أن رفع نظره باتجاهي وابتسم لي . . وبعد قليل ستبتسم لنا الدنيا .

كان ياسر يرتدي ملابس عيد الخليقة ، وأصبح واقفاً قرب النهر بعد أن كان يقف قرب البيت؟ . . يتحزم بالهيمانة ويضع غصن الياس قي خنصره وفوق رأسه . . فجأة اخترق رأسي سؤال غريب ، لماذا يرتدي ياسر ملابس الرستة البيضاء ويضع في خنصره غصن الياس؟ . .ولماذا أصبح واقفا قرب النهر بعد أن كان واقفا قرب البيت . . . . . وفتحت عيني وقد أدركت أني كنت نائمة وأنني كنت أحلم . نظرت إلى النافذة فرأيت كل شيء في مكانه الذي كان عليه . . البيت والصمت والباب والقفل . . . وآني مبكّرة كعادتها ، تمشي بين الممرات التي تقطع الحديقة إلى مربعات ، وتنظفها من الورق المتساقط . . رائحة التراب المبلول التي خلّفها مطر البارحة تدخل من النافذة ، والحديقة معتمة رغم أنها مليئة بالأزهار التي تجعدت أوراقها وانكمشت بتلاتها من شدة البرد .

بعد ألف مرة طلعت فيها الشمس ، كانت آني تنظر إلى ساعتها اليدوية بين حين وآخر ، على الأغلب لأنها شاردة الذهن أو لأن الساعة لم تعد تشير إلى شيء . . والغائبون لا زالوا في منازل بعيدة منسيين في أيام

طويلة تمتد من ماض إلى ماض آخر . . تحت قمر صامت وبعيد . . وآخر رسالة بعثها ياسر من السجن تقول جملة واحدة :

أريد أن أرجع إلى البيت .

ميسلون هادي
الأعمال المنشورة

الروايات :

- نبوءة فرعون ، بيروت - عمّان ٢٠٠٧ .
- الحدود البرية ، بيروت - عمان ٢٠٠٤ .
- العيون السود ، عمّان ٢٠٠٢ .
- يواقيت الأرض ، عمّان ٢٠٠١ .
- العالم ناقصاً واحد ، بغداد ، ١٩٩٦ ، وعمّان ١٩٩٩ .

المجاميع القصصية :

- عطر الوردة ، تحت الطبع .
- رومانس ، دمشق ٢٠٠٠ .
- لا نتظر إلى الساعة ، بغداد ١٩٩٩ .
- رجل خلف الباب ، بغداد ١٩٩٤ .
- أشياء لم تحدث ، القاهرة ١٩٩٢ .
- الفراشة ، بغداد ١٩٨٦ .
- الشخص الثالث ، بغداد ١٩٨٥ .

روايات الفتيان وكتب الأطفال :

- الطائر السحري والنقاط الثلاث ، رواية للفتيان ، عمّان ١٩٩٥
- الخطأ القائل ، رواية للفتيان ، بغداد ١٩٩٣ .
- سر الكائن الغريب ، رواية للفتيان ، بغداد ١٩٨٨ .
- الخاتم العجيب ، رواية للفتيان ، بغداد ١٩٨٧ .
- الهجوم الأخير لكوكب العقوب ، رواية للفتيان ، بغداد ١٩٨٧

NOVEL

حلم وردي فاتح اللون

حكايتي غريبة ومتشعّبة .. من عازف بيانو إلى متعبّد ورع ، ومن متعبّد ورع إلى عاشق ولهان ... ألم أقل لك : نحن نتغيّر على الدوام ؟ الآن أتوق إلى قطع البراري كالريح واضعًا الصوف على جلدي ، متخفّفًا ممّا أثقلت نفسي به من أفكار قصمتني وقصمت ظهري ، فأموت وأدفن في الأرض الدافئة مثل أعظم الزهّاد وصوّام الدهر . قلت لي : إذا فرّقنا صوت الأذان ، فيجب أن يوحّدنا صوت المطر الربّانيّ .. وهذا حلم جميل غرقت فيه بعض الوقت .. كلّك أحلام متّصلة ، وأنا غريق الأحلام .

ISBN 978-9953-36-330-7
9 789953 363301